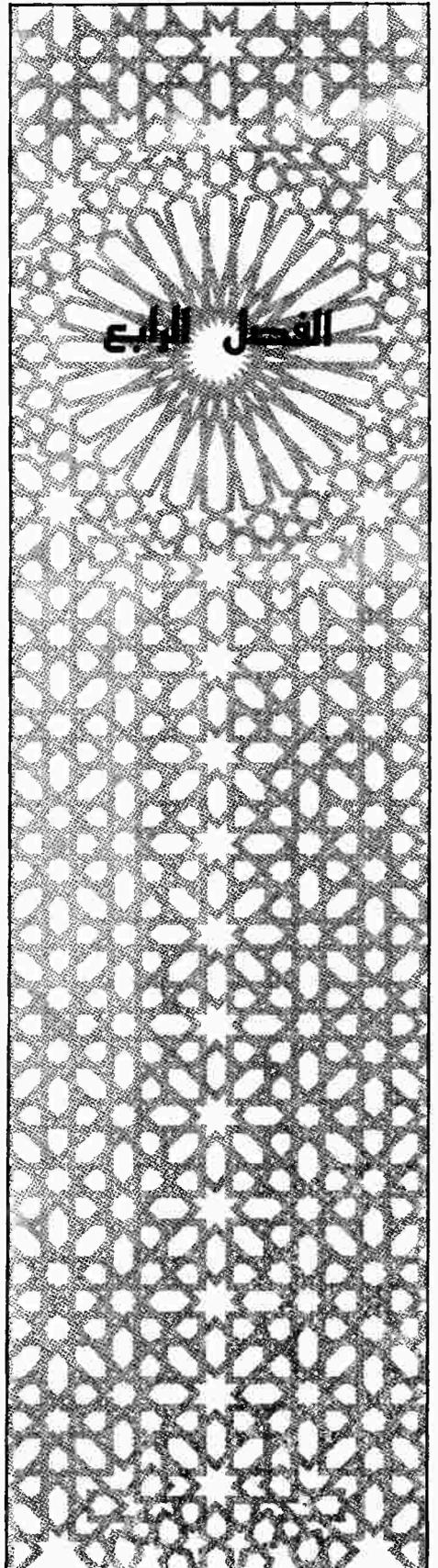


الفصل الرابع

من هم أصحاب الكهف؟



من هم أصحاب الكهف

بعد أن نفينا فى الفصل السابق عن تملیخا ومكسمیلینا وغيرهما ممن وردت أسماؤهم فى قصة النيام السبعة وصف أصحاب الكهف، بعد أن دللنا على ما ذهبنا إليه فى هذا الصدد، یبقى أن نبین للقارىء: من هم أصحاب الكهف الحقیقیون؟ وما موطنهم الصحیح؟ وما مكان الكهف الذى أووا إليه؟ هذا بالإضافة إلى عقیدتهم الصحیحة التى لم تكن مسیحية بولس القائمة على بنوة المسیح لله، وعبادة الثالوث، ولا عبادة يهوه إله بنى إسرائيل الذى جسسه وأطلقوا عليه من الأوصاف ما أمّلته عليهم أهواؤهم، ولكن كانت عقیدتهم الإسلام الذى يقوم على الإيمان بالله الواحد الأحد الذى لم یلد ولم یولد ولم یكن له كفواً أحد، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله.

وسوف یقتضینا الأمر بیان ما كان عليه الحال فى فلسطين قبل بعثة المسیح عليه السلام، والفرق اليهودية التى كانت موجودة وقتئذ وابتعادها أو اقترابها من العقيدة الصحیحة، وموقفها من دعوة المسیح عيسى عليه السلام، ومواقعها على خريطة المنطقة، وما آل إليه حالها بعد وقوع الصدام فيما بیننا، ثم بیننا وبين الرومان.

وسوف یتبین القارىء أى المذاهب والطوائف التى سنتكلم عنها هى التى يمكن أن تكون الطائفة التى ینتمى إليها أصحاب الكهف: أهى طائفة الصدوقیین التى لا تؤمن بالبعث والحساب، أم طائفة الفریسییین التى وإن كانت تؤمن بالبعث والحساب إلا أنها حرفت العقيدة الصحیحة وانحرفت عن الناموس،

أم هي طائفة الآسين أو الآسينيين كما يسميها الأستاذ العقاد، التي تؤمن بالله الواحد وتؤمن بالبعث والحساب وبالقضاء والقدر وبالملائكة والرسول. أم طائفة النصرى، أم كما يسميها الأستاذ العقاد النذيريين الذين مالبثوا أن انخرفوا عن الدين الصحيح إلى ما زعمه بولس من بنوة المسيح لله وما ترتب على ذلك من القول بألوهيته هو وأمه العذراء.

علاقة أهل الكهف باليهود:

على الرغم من أن البشارة بالمسيح قد جاءت في التوراة على أنه رسول سوف يأتي بعد موسى، فإن الأسفار التي وضعها أنبياء بنى إسرائيل تضمنت أقوالاً مختلفة تماماً تتحدث عن منقذ إلهي يأتي لينقذ بنى إسرائيل من أيدي أعدائهم، وهذا المنقذ هو إما (يهوه) نفسه وإما ابنه أو ممثله المسيح.

ويقول ول ديورانت^(١): «الراجح أن فكرة الإله المنقذ قد جاءت إلى غربي آسيا من بلاد فارس أو بابل، فالتاريخ كله والحياة كلها قد صوّرا في الديانة الزرادشتية في صورة صراع بين قوى النور المقدسة، وقوى الظلام الشيطانية، ثم يأتي في آخر الأمر منقذ — شؤسيانث أو مثراس — ليحكم بين الناس ويقم العدالة والسلام الدائمين».

وقد انتقلت هذه الأفكار إلى الأسفار اليهودية، وكان كتاب (دانيال) الذي كتب في عام ١٦٥ ق.م. ليشجع اليهود على الوقوف في وجه انتيخس إيفانوس — لا يزال ذاتاً بين اليهود الذين لم يكونوا يعتقدون أن يهوه سيتركهم طويلاً تحت سيطرة الوثنيين. واتخذ كتاب (أخنوخ) وهو في أكبر الظن من عمل عدة مؤلفين بين عامي ١٧٠، ٦٦ ق.م. صورة رؤى نزلت على الأب الأكبر الذي «سار مع الرب» في سفر التكوين (الآية ٢٤ من الأصحاح الخامس) ويقص هذا السفر سقوط الشيطان ومن معه، وما أدى إليه ذلك من حلول الشر والألم في حياة البشر، ثم نجاة بنى الإنسان على يد المسيح، وحلول مملكة السماء.

وفي سفر الرؤيا كلام عن القضاء على الشر والإثم بتدخل الله نفسه، أو

(١) الجزء الثالث، المجلد الثالث، صفحة ١٨٠.

بإرساله إلى الأرض ابنه أو ممثله المسيح وقد وردت كلمة المسيح— وهى بالعبرية محسيح— فى كثير من المواضع فى العهد القديم، وترجمها اليهود الذين كتبوا الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة (حوالى ٢٨ ق. م) باللفظ اليونانى Christos أى الذى صب عليه الزيت المقدس أو مسح به). أو لم ينبىء به النبى (أشعيا) قبل ذلك العهد بمائة عام إذ يقول: «لأنه يولد لنا ولد، ونعطى ابناً، وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام».

إذن فاليهود قد سبقوا بأفكارهم عن ابن الله، ولادة المسيح نفسه فهدوا بذلك لشيوخ الاعتقاد لدى الناس بأن لله ولداً، وقد نقلوا هذه الأفكار عن العقائد الوثنية سواء فى مصر أو فى فارس، والمعروف أنهم قد تأثروا بالعقائد البابلية أثناء نفيهم إلى بابل.

ومع ذلك فإن اليهود—أو بالأحرى—زعماهم كانوا أول من ناصب المسيح العداة عندما ظهر، ويرجع السبب فى عداتهم له إلى أنه لم يكن فى شخصيته ولا فى سلوكه ولا فى دعوته محققاً لما كانوا يطمحون إليه، فطالما تطلعوا—وهم فى أسر الرومان—إلى من يخلصهم من الذل والظلم والاستعباد، فتوقعوا بطبيعة الحال أن يكون المنقذ على مستوى موسى أو داود أو سليمان، نبياً محارباً قوياً ينتصر لهم على أعدائهم وينتقم لهم منهم. وقد انتقلت هذه الأفكار إلى العامة الذين كانوا يشاركون بعض الصالحين فى ترقبهم لظهور المخلص والمنقذ، ومن هؤلاء الصالحين (شمعون) وكذلك (آنا) ابنة فانيول وغيرها ممن كانوا يقضون حياتهم حول المعبد، صائمين يتربون، ويصلون ويتضرعون لعلهم يرون هذا المنقذ قبل وفاتهم، وكان هذا الترقب يملأ قلوب الناس (٢).

ومما هو جدير بالملاحظة أن اليهود ظلوا يتربون لظهور المسيح إلى ما بعد ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام بمائتى سنة تقريباً، وذلك لعدم اقتناعهم أو بالأحرى عدم اقتناع غالبيتهم العظمى بأن عيسى بن مريم هو المسيح المنتظر، نظراً لما وجدوه من اختلاف واضح بينه وبين المسيح الذى صورته لهم أحبارهم، فبعد أحداث عامى ١١٥—١١٦ ميلادية، والتى قام فيها اليهود بقتل غير اليهود، فقام

(٢) المرجع السابق، صفحة ١٨٣.

هؤلاء وقتلوا من اليهود أعداداً غفيرة. وبعد أن تم إخماد الفتنة ظل من بقى من اليهود محفظين بأملهم القوي فى ظهور مسيح يعيد بناء الهيكل ويعيدهم ظافرين إلى أورشليم، وفى الثورة التى وقعت فى عام ١٣٢ ميلادية كرد فعل لما أعلنه الإمبراطور (هادريان) فى عام سابق من اعتزاه بناء ضريح جديد للجوبيتر فى مكان الهيكل، وإصداره مرسوماً بتجريم الختان وتحريم تعليم الشريعة اليهودية علناً، تزعم المدعو (شمعون باركوشيا) الثائرين، وادعى أنه هو المسيح، وقد انتهت هذه الثورة بهزيمة منكرة على أيدي الرومان.

وقد اعتبر بعض المؤرخين المسيحيين أن (هادريان) بتدميره لأورشليم وللهيكل قد وضع نهاية للصيغة اليهودية، التى كانت تصيغ المسيحية، والتى كان من شأنها لو أنها استمرت أن تجعل المسيحية كما لو كانت مذهباً إصلاحياً يهودياً يحافظ على القيود الشرعية القديمة والالتزامات الطقوسية الثقيلة، ويقولون إنه لو كانت هذه النظرية قد انتصرت لأدى ذلك إلى تدمير المسيحية كما دمرت أورشليم، أو لتحولت فى تلك الظروف البائسة إلى مذهب يهودى يعتبر من يعتنقه من الأميين، فى نظر اليهود، أتباعاً من الدرجة الثانية أو كما كانوا يسمونهم «المهتدون حديثاً» أو المهتدون الجدد^(٣).

الطوائف اليهودية:

كان اليهود قبل ظهور المسيح ينقسمون إلى ثلاث طوائف هى: الصدوقيون، والفريسيون، والآسيون، وكانوا مختلفين فيما بينهم حول البعث والحساب، فقد كان الصدوقيون يؤمنون بأن الكتب اليهودية الأولى لا تذكر البعث ولا اليوم الآخر، ولا تعد الصالحين حياة بعد هذه الحياة، ولذلك فإنهم لم يؤمنوا بهذه الأمور.

وكانت الحملة على السيد المسيح بقيادة اثنين من كبار الكهنة الصدوقيين، وهما «حنانيا» و«قيافا». أما الفريسيون فقد كانوا يؤمنون بالبعث والحساب، وينكرون على خصومهم الصدوقيين عدم اعترافهم بها. وكانوا هم الأبق إلى انتظار الخلاص على يد المسيح المخلص فى عالم الروح، وكانت هاتان الطائفتان أكبر الطوائف اليهودية. أما الطوائف الأخرى فكانت تقل عنها فى العدد كثيراً،

كما كانت تقل عنها فى القوة والثروة .

طائفة الآسينيين :

تعد هذه الطائفة أشد الطوائف اليهودية التى قامت قبل ميلاد المسيح غموضاً ، سواء من حيث نشأتها ونهايتها ، أو من حيث أفكارها ومعتقداتها . وقد تباينت الآراء بشأنها فمن قائل إنها هى التى كانت تقيم فى المنطقة التى عرفت فيما بعد بـ (خربة قران) وسميت بطائفة قران حيث عثر فى مغاراتها التى اكتشفت عام ١٩٤٧ على ما يسمى بلفائف قران ، وهى وثائق من الجلد سجلت عليها الطائفة نظمها ومعتقداتها وآراءها وأموراً أخرى فى غاية الأهمية ، وألقت أضواء جديدة على التاريخ اليهودى ، وفضحت تزوير اليهود للتوراة ، واقتباس المسيحيين لكثير من أفكار ومبادئ الطائفة ونسبتها إلى المسيح . ومن قائل إن الطائفة الآسينية ليست هى طائفة قران ، وإنما هذه غير تلك ودلل على ذلك بأدلة وإن كانت ليست حاسمة ، إلا أنها تلقى بظلال من الشك حول ما قيل من أن طائفة الآسينيين هى نفسها طائفة قران ، وهو ما سوف نبينه فيما بعد .

غير أن الذى لا شك فيه أنه سواء أكانت الطائفتان مختلفتين أم كانتا طائفة واحدة اختلف اسمها فسميت مرة بالآسينية نسبة إلى ما كانت تتميز به من صفات ، وما يتمتع به أفرادها من مهارات ، وسميت مرة ثانية بالقمرانية نسبة إلى المكان الذى أقامت فيه ، وهى على ما يبدو تسمية جديدة لم تعرف إلا بعد اكتشاف الوثائق التى تركتها فى كهوف قران ، حيث كانت تعيش ، فإن موقفها العادى للطائفتين اليهوديتين الكبيرتين وهما طائفة الصدوقيين وطائفة الفريسيين ، وغيرتها على العقيدة الصحيحة وتمسكها بالتوراة الحقيقية ، واحتفاظها بها بعيدة عن أى تزوير أو تغيير مما أدخلته هاتان الطائفتان على ما كان لديها من نسخ للتوراة ، هو من الأمور التى أكدتها الدراسات النقدية والمقارنة التى أجراها العلماء المتخصصون فى الدراسات اللاهوتية .

واسم هذه الطائفة مختلف عليه كما أسلفنا فبينما يقول «ول ديورانت» (٤) إن اسمها (الآسية) مشتق من اللفظ الكلدى (اسشاي) Aschai ومعناه المستحم .

(٤) المرجع السابق ، الجزء الثالث ، المجلد الثالث ، صفحة ١٧٥ .

فإن دائرة المعارف الأمريكية تقول: إن اسمها Essenes مشتق من الكلمة الآرامية Hasen وهي قريبة من الكلمة العبرية Hasidim ومعناها تقي أو ورع. أما الأستاذ عباس العقاد^(٥) فإنه يقول إن «الراجح من الأقوال المتعددة أن الاسم مأخوذ من كلمة (آسى) بمعنى الطبيب أو النطاسى فى اللغة الآرامية، وهى تفيد هذا المعنى فى اللغة العربية التى تعد اللغة الآرامية أقرب اللغات السامية إليها، ومن المعقول أن يتسمى أصحاب هذا المذهب بالآسيين؛ لأنهم كانوا يتعاطون طب الروح، ويدعون إبراء المرضى بالصلوات والأوراد، كما يدعون العلم بخصائص العقاقير» وهذا ما قاله (آلجرو)^(٦) أيضاً حيث ذكر أن الآسينيين مارسوا مداواة المرضى، كما أخبر بذلك (يوسفوس) فقد حصلوا من الأقدمين معلوماتهم الخاصة بالأعشاب التى تستخدم فى علاج المرضى وكذلك المعادن، ويقول: إن هناك تفسيراً من أكثر التفسيرات إقناعاً وهو الذى أمكن استخلاصه من اسمهم اليونانى وهو (Essaeoe or Esénoi) الذى ينطبق على الاسم الآرامى (ásayyá) ومعناه «الأطباء المعالجون» وهو على ما يبدو موصول بالاسم الذى أطلقه فيلو Philo على نظائريهم المصريين وهو «الخبراء بفن الشفاء» إذ المعروف أن هذه الطائفة كانت قد أقامت فى الإسكندرية قبل انتقالها إلى فلسطين، ويعزو آلجرو ما قام به السيد المسيح من أعمال أدت إلى شفاء المرضى إلى اتصاله بهذه الطائفة، وتعلمه منها، ويذكر ما جاء فى إنجيل لوقا^(٧) عن المرأة التى كانت مصابة بالشلل فشفاهها المسيح «وكان يُعَلِّم فى أحد المجامع فى السبت وإذا امرأة كان بها روح ضعف ثمانى عشرة سنة وكانت منحنية ولم تقدر أن تنتصب البتة، فلما رآها يسوع دعاها وقال لها يا امرأة إنك مخلولة من ضعفك، ووضع عليها يديه ففى الحال استقامت ومجدت الله» .

ولكن هناك من يرى^(٨) أن كلمة (آسية) أصلها (قصية) أى أن حرف الألف يقابله حرف القاف ومعناها المعتزلة أو الخنسية أى المتبتلة، ويذهب إلى

(٥) حياة المسيح، صفحة ٤١.

(٦) John Allegro, The Dead Sea Scrolls, Areappraisal, P. 147.

(٧) الأصحاح ١٣، الفقرات ١١ إلى ١٣.

(٨) يوسف درة الحداد، دراسات إنجيلية، الجزء الثانى، مصادر الوحي الإنجيلي، تاريخ المسيحية،

صفحة ٦٠٧.

القول بأن ذكر هذه الجماعة قد ورد فى الإنجيل حيث ذكر: «فإن من الخصية من ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم، ومنهم من خصاهم الناس، ومنهم من يعيشون كالحصيان فى سبيل ملكوت الله» إشارة إلى الكهنة الرهبان فى أديرة قران .

ومع ذلك فإنه لا يلبث أن يعود إلى ترديد ما قاله العقاد وغيره من أنهم تلقبوا أيضاً بالأتقياء أى الآسنيين باللغة اليونانية؛ لأنهم تطرفوا فى الزهد بالنساء والولد والمال والطاعة لشريعتهم .

وقد توفرت عن الآسنيين معلومات قليلة منها ما ذكره المؤرخ اليهودى (فلافيوس يوسفيوس) Flavius Josephus الذى قدر عددهم بما لا يزيد على أربعة آلاف يعيش أكثرهم فى جنوب فلسطين. كذلك كتب عنهم الفيلسوف فيلون Philo Judaeus وهو أحد ثلاثة اهتموا بهذه الطائفة، فوصف المكان الذى عاشت فيه وتاريخها ومعتقداتها الخاصة، أما الثالث فهو المؤرخ الرومانى الكبير (بلىنى) Peliny الذى لقى مصرعه عام ٧٩ ميلادية فقد قال عن الآسنيين إنهم طائفة خاصة من الناس أكثر إثارة للإعجاب من أية طائفة أخرى فى العالم، إذ تخلوا عن النساء، فقد نبذ أفرادها الجنس كلية، وهم معدمون لا يملكون سوى أشجار النخيل، فقد كانوا يحيون حياة تقوم على العزوبة، ويزهدون فى الغنى والثروة، ويميلون للعزلة، ويبغضون الحياة الدنيا اللاهية الصاخبة، ويعكفون على التوبة» .

وقد فسر يوسفيوس كراهية الآسنيين للزواج قائلاً: «إنهم لم يكونوا يدينون الزواج من حيث المبدأ، ولكنهم كانوا يريدون أن يظلوا بنأى عن خلاعة النساء وفسقهن، إذ كانوا يعتقدون أنه لا توجد امرأة واحدة مستعدة للإخلاص لرجل واحد، وقد اقتبس فيلون فى كتابه Apologia Pro Judaeis آراء شديدة القسوة اعتنقها الآسنيون عن النساء بصفة عامة منها: أنهن أنانيات، شديدات الغيرة، ماهرات فى إفساد أزواجهن أخلاقياً، وغوايتهن بالفتنة بشكل لا يكاد ينتهى أبداً^(٩) .

(٩) Allegro, op. cit, p. 117.

ويقول الأستاذ العقاد (١٠) عن هذه الطائفة: «ومصدر قوتهم صرامة العقيدة وتنظيم الخطة.. وتكون دلالتهم أعظم من قوتهم؛ لأنهم طائفة من صميم الأمة الإسرائيلية قد استقلت بشعائرها وعباداتها وآرائها وأسرارها، وأوشكت أن تستقل عن الهيكل كله في علاقتها بالدين والقومية، ولولا أنها تعترف بتقريب القرابين في الهيكل لما حسبت من طوائف اليهود».

ويقول الأستاذ العقاد إن الطائفة نشأت على الأغلب بالإسكندرية في القرن الثاني قبل الميلاد، واقتبست من مدارس الإسكندرية كثيراً من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية. وهذا الكلام الذي قاله الأستاذ العقاد لا يختلف كثيراً مع ما قاله (ول ديورانت) من أن أعضاء الطائفة أخذوا عقائدهم وعباداتهم من نظريات الزهاد، ونظمهم التي كانت منتشرة في العالم في القرن الأول قبل ميلاد المسيح، كذلك فإن أعضاء هذه الطائفة كانوا يتآخون ويصطحبون اثنين اثنين في رحلاتهم، وقلما كانوا يشاهدون في المدن الآهلة بالسكان أو في الأحياء التي يرتادها القصاد للفرجة وإزجاج الفراغ.

ويتفق ماورد في دائرة المعارف الأمريكية بشأن التاريخ الذي ظهرت فيه هذه الطائفة مع ما ذكره العقاد، فهي تحدد التاريخ الذي ظهرت فيه بالفترة الواقعة بين ١٤٠ ق.م إلى ٦٨ ميلادية. وكان أعضاء طائفة الآسينيين يؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص، يعتقدون أن الإخلاص بعث روحاني يهدي الشعب إلى حياة الاستقامة والصلاح، ورائدهم في طلب الرضا من الله هو النبي «عمواس» الذي كان يعلم الشعب أن التقرب إلى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب إليه بالذبائح والهدايا، ويقول المؤرخ اليهودي «يوسفوس» إن حياة الكثيرين منهم كانت تطول أكثر من مائة عام بفضل طعامهم البسيط، وحياتهم المنظمة.

وتضيف دائرة المعارف الأمريكية إلى ذلك أن ثقافة الآسينيين كانت تتكون من العهد القديم (التوراة) والتدريب على النظام وإنشاد التراتيل والتسبيح بالشكر لله.

(١٠) المرجع السابق، صفحة ٤٣.

وكانوا ينتظرون مجيء المسيح لينشئ على الأرض مملكة يتمتع الناس كلهم فيها بالمساواة، ولا يدخلها إلا من كانت حياته نقية طاهرة، وكانوا شديدي التحمس في الدعوة إلى السلام، ويأبون أن يصنعوا شيئاً من أدوات الحرب. وإن كانوا قد أولوا اهتماماً خاصاً لما ورد في سفر الرؤيا من وصف للمعركة بين قوى الخير وبين الشيطان. كما ساد لديهم الاعتقاد بأن نبوءة العهد القديم سوف تتحقق في حياة الطائفة التي كانت تدعى الانحذار من أول كاهن أعلى وهو هارون أخو النبي موسى، وكانت تلتزم التزاماً شديداً بالناموس القويم أو التقليدي Orthodox وبالذات فيما يتعلق بطقوس الطهارة، كما كانوا يمارسون التعميد باعتباره من الطقوس التي يعبرون بها عن الندم والمعرفة، ويعتقدون أنه لا يكفي أن يكون مرة واحدة، وهذا أحد أوجه الخلاف بينهم وبين عامة اليهود، والخلاف الوحيد بينهم وبين النبي يحيى (يوحنا المعمدان) الذي كان يعتقد أن التعميد يكفي أن يكون مرة واحدة، فقد كان يماثلهم في الزهد والتقشف^(١١)، بل قيل إنه كان عضواً في الجماعة، ولذلك فقد أصرت هذه الطائفة على رفض التعديلات المتصفة بالتساهل التي أدخلتها الطائفتان الأخريان، الصدوقيون والفريسيون نتيجة للمؤثرات الأجنبية.

وكان ذلك أهم أسباب الخلاف بينهم مما جعلها تتخذ لها موطناً في البرية في فلسطين، بعيداً عن المجتمعات اليهودية المستقرة لكي تتجنب ما كان يصيبها من أضرار نتيجة لاضطهادهم لها، ومن أجل أن تمارس معتقداتها التي كانت ترفض أن يصيبها المجتمع اليهودي الفاسد بالتلوث، وكانوا يعتقدون أن الله قسم العالم إلى جماعة مختارة - البقية الحقيقية من شعب إسرائيل - وأبناء الظلام، واعتقدوا أنهم وحدهم الذين سينجون من العذاب.

وفما يتعلق بتاريخهم فقد ذكرت دائرة المعارف الأمريكية أنه بعد الثورة المكابية أو كما كانت تسمى أحياناً الثورة الهسمونية (١٦٧ ق.م) أقدم اليهود الوردون على التحرر من الوهم الناشئ عن ممارسة العقيدة الهسمونية، وكونوا الجماعة الآسينية المعادية للفريسيين والصدوقيين، وكان الآسينيون يعتبرون مجتمعهم أو جماعتهم إسرائيل الجديدة، وكانوا يحكمون بواسطة ثلاثة كهنة واثني

(١١) ول ديورانت، المرجع السابق، صفحة ٢١٦.

عشر شخصاً من المدنيين، كما كانوا ينتظرون مجيء المسيح الملكى، أى سليل داود من ناحية الملك وهارون من ناحية الكهانة. وكانت هذه الطائفة تعد، حتى قبل ميلاد المسيح وظهور دعوته، طائفة متميزة عن بقية اليهود، فلما اعتنقوا النصرانية فى صورتها الأصلية والصحيحة، اعتبروا أنفسهم ممثلى العهد الجديد، أما العهد القديم، عهد موسى، فإنهم كانوا يعتقدون أنه نقض نتيجة لضلال بنى إسرائيل، وأنهم (هم البقية الباقية) التى تحدث عنها الأنبياء.. إنهم إسرائيل الحقّة.

والملاحظ أن المعلومات الخاصة بالطائفة الآسينية كانت قليلة بصفة عامة، بالنظر إلى أنهم هم أنفسهم لم يتركوا وراءهم كتابات خاصة بهم، وهو ما جعل الجدل يحتمل حول قيمة ما ذكره المؤرخون عنهم ومدى الثقة فيهم، فلما اكتشفت لفائف البحر الميت فى المنطقة التى تعرف بخربة قران وغلب على ظن الغالبية العظمى من المؤرخين وعلماء الآثار وغيرهم من المهتمين بعلم مقارنة الديانات أن هذه اللفائف تخص طائفة الآسنيين، وأنهم هم أنفسهم قد خلفوها، زاد ذلك فى كم المعلومات الخاصة بهم، مما وفر للدارسين والمهتمين بهذه الطائفة بخاصة، وبنشأة المسيحية بعامة، أساساً قوياً يقيمون عليه دراساتهم وأبحاثهم، إلا أنه ظهر من بين العلماء الغربيين من يقول إن طائفة الآسنيين غير طائفة قران، وهو العالم (جون آليجرو) الذى قدم بعض الأمور التى اعتبرها أدلة تؤيد ما ذهب إليه.

من ذلك قوله أنه قد تبين أن الآسنيين لم يكونوا يعيشون فى الصحراء مثلما كانت تعيش طائفة قران، بل كانوا يعيشون فى مستوطنات متصلة بالمدن والقرى فى فلسطين فى جماعات صغيرة، وكانوا إذا سافروا من مكان إلى آخر، وحلوا على مستوطنة من المستوطنات التى يعيش فيها إخوانهم فى الطائفة، استضافهم هؤلاء وقدموا لهم كل ما يحتاجون إليه، باعتبارهم من المنتفعين بالملكية الجماعية لهذه المستوطنات؛ ولذلك فإنهم لم يكونوا يحملون معهم عند سفرهم أى شىء مما يحمله المسافرون معهم سادة؛ لأنهم حينما حلوا يجدون ما يحتاجون إليه، ويقول: إن طائفة قران لم تكن تطبق هذا النظام؛ لأنها كانت تقيم فى مكان واحد، وليس فى مستوطنات كثيرة، ومع ذلك فإنها كانت تطبق نظاماً قريباً من هذا النظام، بموجبه تقدم للمسافرين العابرين ما يحتاجون إليه من مأوى وطعام، خاصة إذا كانوا معدمين.

ويقارن آليجرو بين هذا النظام وما كان يفعله السيد المسيح، وذلك لأنه — أى آليجرو — يعتقد أن المسيح كان قد اقتبس الكثير من النظم التى كانت الطائفة الآسينية تطبقها فيقول إن المسيح كان يبعث بأتباعه إلى الأقاليم وهو على ثقة من أن الجماعات التى سيتصلرن بها سوف تحسن ضيافتهم، وأشار فى هذا الصدد إلى ما جاء فى الإصحاح العاشر من إنجيل متى: «لا تفتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً فى مناطقكم ولا مزوداً ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا؛ لأن الفاعل مستحق طعامه» كذلك يقارن آليجرو بين موقف الآسينيين من النساء، وموقف طائفة قران منهن، بطريقة يبدو منها إصراره على اعتبار أن إحدى الطائفتين ليست هى الأخرى فهو يقول (١٢): «كذلك نجد أوجهاً كثيرة للتطابق بين جماعة قران وطائفة يهودية قديمة تعرف بالآسينيين وصفها لنا يوسفوس ومؤرخون آخرون ويعتقد كثير من الدارسين أن جماعة قران تتوحد على الأقل، مع أحد فروع الحركة الآسينية التى كان أفرادها لا يتزوجون، واهتموا بإثبات أن إحدى وثائق قران تشتمل على ما يمكن الاستدلال به، على أن الطائفة كانت قد أدخلت تعديلاً على التعليمات التوراتية لكى تتفق مع هذا النوع من المواقف».

غير أن آليجرو نفسه استدل من بعض لفائف البحر الميت التى درسها على أن جماعة قران، على خلاف الآسينيين، كان يوجد فيها نساء وأطفال، حيث ورد فيها «وعندما تحضر النساء يجرى جمعهن معاً ومعهن أطفال، ويتلى عليهن نظام العهد الذى يرتبط به أعضاء الجماعة» وفيما يتعلق بالزواج تقرر الطائفة أن الرجل لا يتخذ امرأة زوجة له إلا بعد أن يبلغ العشرين من عمره، وإلى أن يبلغ هذا العمر ينبغى عليه أن يعرف الفرق بين الخير والشر، كما يجب عليه أن يلم بالمسئوليات التى تترتب على الزواج، أما المرأة التى يزعم أن يتخذها زوجة له، فإنها طالما لم يبلغ العشرين من عمره بعد، يكون لها أن تشهد ضده إذا ارتكب أى عمل يستلزم اتخاذ الإجراءات القانونية قبَّله، كما أن لها أن تتخذ قرارات على استقلال عنه فيما يتعلق بأهدافها فى الحياة.

وهناك دليل آخر على وجود النساء فى قران، هو ما جرى الكشف عنه من

هياكل عظمية لنساء دُفِنَ في مقبرة الطائفة، وأكثر من ذلك فإن بعض نظم وثيقة دمشق يبدو منها أنها صيغت لتنظم الحياة الأسرية، فهي تتكلم عن الأرامل من النساء وغير المتزوجات اللاتي يحتجن إلى مساعدة، وفيها يتعلق بالطلاق فإن أعضاء طائفة قران كان لديهم نفس الاتجاه الذى ينسب إلى يسوع فيما يسمى بموعظة الجبل، حيث قال (١٣): «وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعله الزنى يجعلها تزنى، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى». وهذا ضد عادة أبحار اليهود فى السماح بحرية الطلاق، فوثيقة دمشق تعاقب «الزواج بامرأتين على التعاقب، فى حياة الرجل» مثل يسوع، علماً بأن تعاليم طائفة قران سابقة على تعاليم المسيح، كذلك موقفها من زنى النظر، حيث اعتبرت النظر إلى امرأة بشهوة كالزنى فنقرأ فى تعاليمهم عن «الاشتهاء الذى يلى النظر» وعن «عناد القلب الآثم والعينين الشهوانيتين» ثم يأتى يسوع فيقول: «قد سمعتم أنه قيل للقديس لا تزنى، وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتتها فقد زنى بها فى قلبه» (١٤). وهذا كله يعنى أن مجتمع قران كان على خلاف الآسنيين، يضم نساء ويعترف بالزواج والأسرة (١٥).

ومع ذلك فإن أليجرو لم يهتم ببيان أوجه الاختلاف الأخرى بين الطائفتين الآسينية والقمرانية، ووجه اهتمامه إلى الطائفة الثانية متعمداً فى كل ما قاله عنها على ما واجده فى وثائقها التى خلفتها وراءها فى كهوف قران، وعلى الرغم من وجهة الأدلة التى استند إليها للقول بأن الطائفة الآسينية غير الطائفية القمرانية، فإن اعتماد معظم المؤرخين وعلماء الآثار وغيرهم من المهتمين بالديانات القديمة للمعلومات التى اشتملت عليها لفائف البحر الميت على أنها معلومات خاصة بالآسنيين، وتقريرهم أن سكان قران هم الآسنيون،—جعل من الصعب قبول ما ذهب إليه «أليجرو» من أن هؤلاء غير أولئك. والواقع أن هذه المسألة ليست بذات أهمية، فسواء أن يكون الآسنيون هم سكان قران أو ألا يكونوا، وإنما

(١٣) متى، الأصحاح الخامس، ٣١.

(١٤) المصدر السابق، رقم ٢٧.

(١٥) Allegro, op. cit, p. 114.

الأمر البالغ الأهمية هو ما كشفت عنه «لغائف البحر الميت» الخاصة بالطائفة اليهودية التي كانت تقيم في قران من معلومات خطيرة أُلقت الضوء على التاريخ اليهودي فيما قبل ميلاد المسيح، وما قام به اليهود من أعمال، أقل ما توصف به أنها مشينة، حيث زوروا التوراة، بأن أضافوا إليها ما أمّلته عليهم أهواؤهم، وحذفو منها ما وجدوا أنه يتعارض مع شهواتهم الدنيوية وأطماعهم، ليس ذلك وحسب، بل إن اللغائف كشفت كذلك عن كثير من الحقائق المتعلقة بدعوة السيد المسيح، والتي نجح «بولس» وغيره من دعاة التثليث في إخفائها منذ الربيع الأخير من القرن الأول الميلادي وإلى أن عثر على اللغائف في كهوف قران عام ١٩٤٧ وما تلاه من أعوام.

وسواء أكان الآسينيون هم طائفة قران أم لم يكونوا، فإنهم—ومعهم هذه الطائفة—يمثلون القلة من اليهود الذين حافظوا على التوراة سليمة دون أن يمسه تزوير، وهم الذين آمنوا بالله فلم يشركوا به أحداً، كما آمنوا برسله البشر لا الآلهة ولا أبناء الله. فلم يقولوا: إن عيسى بن مريم ابن الله كما قال بولس وشيعته، كما أنهم لم ينكروه كما فعل بقية اليهود، بل آمنوا به بشراً رسولاً، فالآسينيون هم القلة التي آمنت بالتوراة والإنجيل كما أنزلها الله، أما الغالبية فهم الفاسقون الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ
وَآكَرَهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١٦).

قصة العثور على لغائف البحر الميت:

في صيف عام ١٩٤٧ عثر على كهف بالقرب من البحر الميت، حيث اكتشفت مخطوطات من كتاب (أشعيا) تعد أقدم، بجوالي ألف عام، من أى مخطوط عبرية عن العهد القديم عرف حتى الآن، ثم تابعت الاكتشافات في المنطقة التي تعرف باسم (خربة قران). وقبل أن يمضى وقت طويل كان العالم قد امتلك بقايا مئات من اللغائف التي تكشف عن فترة يمكن اعتبارها حتى

الآن ، واحدة من أهم الفترات فى تاريخ الإنسان ، كذلك فإن الاسئلة التى طالما شغلت عقول الدارسين والمهتمين منذ بداية البحث والدراسة النقدية فى أصول المسيحية ، أصبح من الممكن الإجابة عنها بعد العثور على هذه اللفائف ، وقد لعبت المصادفة دوراً كبيراً فى هذا الكشف .

ذلك أنه بينما كان أحد الرعاة وهو فتى بدوى يدعى محمد الذهب ، ينتمى إلى قبيلة تميرة التى كانت ترعى قطعانها من الماعز فى البرية التى بين بيت لحم والبحر الميت ، يطارد معزة من قطيعه هربت منه ، ومضت تتسلق الجبل الصغير إلى أن بلغت قته وهو فى إثرها—إذا به يعثر على كهف ، فلما دخله وجد فيه عدداً من الجرار التى كانت اللفائف بداخلها ولما عاد محمد إلى مضارب القبيلة أخبر صديقاً له أكبر منه سناً بما حدث ، فذهب معه فى اليوم التالى إلى الكهف وهما يظنان أن بالجرار كنزاً من الذهب ، حيث إن محمداً لم يكن قد عرف ما بها بعد . ولذلك فإنها أصيبتا بخيبة أمل عندما قاما بتحطيم جرتين ولم يجدا بها شيئاً ، فلما حطما الجرة الثالثة ازدادت خيبة أملهما لما وجدا أن ما بداخلها ليس إلا لفائف من الجلد البنى ، وعند عودتهما إلى مضارب القبيلة حملا معها بعض اللفائف التى بلغ طولها عند فتحها مايساوى المسافة بين طرفى الخيمة ، ووجدا عليها كتابة عجزاً عن قراءتها ، وظنا لأول وهلة أنه لافائدة تعود عليهما مما وجداه .

ومع ذلك فقد حملا معها اللفائف التى كان عددها ثلاث لفائف ، ومضيا إلى السوق الذى كان يقام فى بيت لحم فى يوم محدد من أيام الأسبوع ، حيث كانا يذهبان مع بقية أفراد القبيلة لبيع اللبن والجبن ، وكان هناك رجل من المسيحيين السريان يتعاملان معه اسمه خليل إسكندر شاهين ، ويعرف فى البلدة باسم الشهرة (كاندو) Kando كان يملك محلاً للبقالة وآخر إسكافياً .

وعندما أطلعه البديوان على اللفائف أظهر اهتماماً قليلاً بها ، ولكنه فكر فى أنه يمكن أن يستخدمها كمادة خام فى عمله كإسكافى ، وأخيراً ، وبعد أن ظلت لملقاة فوق سطح محله لعدة أيام ، التقط واحدة منها وتفحصها ، فبدأ له الخط المكتوب عليها بلا معنى ، ولكن خطر بباله أن رعاته الروحانيين فى القدس يمكن أن يعرفوا أكثر عن هذه الخطوط؛ ومن ثم فإنه انتهر فرصة سفره إلى القدس ، وحمل

معه اللفائف وتوجه بها إلى دير القديس مرقس (سان مارك) للمسيحيين السريان، الذي يقع في المدينة القديمة، وكان كل هم (كاندو) أن يعرف ماتمثلة اللفائف من قيمة مالية؛ ولذلك فإنه رأى قبل أن يعرضها على كهنة الدير، أن يجمع منها أكبر عدد؛ ولذلك فقد صحب صديقاً له دعى «جورج» وذهبا إلى الكهف الذي وصفه لها البدويان، وقاما يجمع عدد من القطع الكبيرة من اللفائف الممزقة، وبعد أن أخذوا كل ما أمكنها جمعه، وجدا أنه لم يعد هناك ما يمنع من إخبار السلطات السريانية لدير القديس مرقس بالأمر.

ولما علم المطران السرياني بادر بدوره إلى تنظيم حملة إلى الكهف للتنقيب في المكان، فقامت الحملة بعمل فتحة كبيرة قرب الأرض، وانتزعت كل شيء أمكنها أن تضع أيديها عليه، كل ذلك دون أن تخاطر المسؤولين في الحكومة التي كانت في ذلك الوقت تابعة لسلطات الانتداب البريطانية، ثم للحكومة الأردنية بعد إعلان بريطانيا إنهاء انتدابها على فلسطين، مما يصم هذا العمل بعدم المشروعية لمخالفته لقوانين الدولة التي تظل مالكة لكل المواد الأثرية التي انتزعت من أرضها، ويحق لها أن تطالب بها وتسعى جاهدة لاستردادها، ولكن متى كانت الحكومات العربية تهتم بمثل هذه الأمور؟! وما الذي فعلته من أجل استرداد الآثار التي لا تعد ولا تحصى، والتي نهبت من بلادها ونقلت إلى الدول الغربية؟!!

واستمر البحث في كهوف قران وأحيط بالسرية، وحدثت أضرار كثيرة نتيجة لذلك، وفي هذه الأثناء قام كاندو بإيداع اللفائف التي في حوزته لدى المطران مقابل أربعة وعشرين جنياً إسترلنيا، في حين استمر المطران يخلق كالبصر حول المؤسسات العلمية المختلفة في القدس، يريد أن يكون فكرة عن القيمة المادية للنفائف، ويبدو أن إحداها عرضت على الأستاذ (سوكينيك) E.L. Sukenik بالجامعة العبرية، الذي احتفظ بها بعض الوقت حتى يتمكن من دراستها، ولكنه بدأ يبحث عن بقية اللفائف بعد أن تحقق له أنها قديمة جداً، وأن لها قيمة عظيمة، ثم قام برحلة مخفوفة بالمخاطر إلى بيت لحم، بالنظر إلى نشوب المعارك بين العرب واليهود عقب انسحاب دولة الانتداب، واتصل بكاندو من أجل أن يحصل منه على ثلاث لفائف أخرى، ولكن كاندو كان قد بدأ يشعر بالفزع منذ أن اعتراه الخوف من تسرب أخبار التنقيب عن هذه الآثار بطريقة غير

مشروعة ؛ لأنه يمكن أن يعتبر مسئولاً أمام الحكومة الأردنية عما حدث ، ومن ثم فقد أخذ بأسباب الحذر وقام بدفن بعض من القطع الكبيرة التي حصل عليها من أحد الكهوف في الحديقة الخلفية لبيته في مدينة بيت لحم ! ولسوء الحظ ، فإن تربة الحديقة كانت إلى حد ما مختلفة عن الرمال الجافة الموجودة في (قران) حيث يوجد الكهف ؛ ولذلك فإنه عندما ذهب لاستخراج قطع اللفائف ، فيما بعد ، وجدها وقد تحولت إلى ما يشبه العيصي المصنوعة من مادة كالغراء مما أدى إلى فقدانها لقيمتها تماماً .

وفي الوقت نفسه ، استمر المطران السرياني في جولاته محاولاً أن يكشف ما إذا كانت اللفائف قديمة حقاً ؛ وأخيراً ، وفي ١٨ من فبراير عام ١٩٤٨ اتصل هاتفياً بالمدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية ، وتكلم مع الدكتور (جون . س . تريفر) John c. Trever الذي كان يقوم بصفة مؤقتة بعمل مدير المؤسسة أثناء غياب مديرها الأصلي ، وأخبر المطران الدكتور (تريفر) كذباً أنه بينما كان يبحث في مكتبة الدير ، عثر على بعض المخطوطات العبرية القديمة التي يريد أن يعرف رأيه بشأنها ، وجرى تحديد موعد للقاء في اليوم التالي ، وبعد مقارنة سريعة للنفائض بصور بعض المخطوطات العبرية القديمة وإجراء بحث معقد في القواميس والفهارس الأبجدية — Concordances اكتشف (تريفر) أن بين يديه مخطوطة أشعيا ، وأنها قديمة جداً حقيقة ، وطلب من المطران أن يأذن له بتصوير اللفائف ، وبعد مفاوضات سمح له المطران بذلك ، واستمر (تريفر) في فحص اللفائف ، وكان كلما تقدم في العمل ازدادت دهشته أكثر فأكثر ، حيث تبين له من المقارنة التي أجراها بينها وبين صورة لورق البردى خاصة باليهود السابقين على المسيحية أنها أقدم منها بالفعل ، وأدرك أنه حصل على أقدم مخطوطة للتوراة لم تكن معروفة لأحد من قبل ، ومع ذلك فإنه بذل جهداً كبيراً من أجل أن يكبح حالة نفاذ الصبر التي كانت تنتابه كثيراً أثناء العمل ، وتدفعه إلى أن يعلن عن اكتشافه الخطير ، واستطاع أن يؤجل ذلك إلى ما بعد قيامه بالاتصال بأمين المتحف الفلسطيني في ذلك الوقت ويدعى (هارى أيلف) Harry Illife الذي كانت تربطه به علاقة قديمة ، ودعوته إلى الذهاب إلى جرش Jericho لالتقاط بعض الصور لأعمال التنقيب التي كانت تجرى هناك .

كذلك ناقش (تريفر) المطران فيما اقترحه عليه من أخذ الوثائق إلى خارج

معينة القدس، بعد أن اشتدت المعارك بين العرب واليهود، وامتدت إلى الشوارع والوديان، مما جعل علماء الآثار يغادرون المدينة فراراً من خطر الحرب، وحتى شهر نوفمبر عام ١٩٤٨ عندما وصلت نسخة شهر أبريل من نشرة المدارس الأمريكية للبحوث الشرقية إلى القدس، لم يكن السيد (لانكستر هاردنج) Lankester Harding المسئول الجديد عن الشؤون الأثرية لفلسطين العربية، والصفة الشرقية للأردن—قد علم أنه منذ ثمانية عشر شهراً مضت بدأت عمليات الكشف التي لا يصدقها عقل في البحر الميت.

أما المطران السرياني فقد نجح في تهريب اللقائف التي في حوزته إلى خارج فلسطين، حيث حملها إلى الولايات المتحدة، ولما علمت الحكومة الأردنية بالأمر طالبت بإعادة اللقائف فوراً، ولكن—وبعد أن جرى النشر في الصحف عن اللقائف وأهميتها—ارتفعت قيمتها المالية مما جعل المطران يرفض طلب الحكومة الأردنية، ويصر على الحصول على الثمن المرتفع الذي عرض عليه، ويقول (آيجرو) (١٧) «إن الضوء الوحيد اللامع في هذه القضية البائسة، والذي لاح في هذه المرحلة يتمثل في موافقة المطران والسيد (تريفر) والمدارس الأمريكية للبحوث الشرقية على تصوير ونشر اللقائف في الحال، في الوقت الذي كانت تدور فيه المفاوضات بشأن شرائها، وقال الأمريكيون للمطران: إن تصوير اللقائف ونشرها بسرعة سوف يعزز من قيمتها المالية، وفي الحقيقة فإن العكس هو الذي حدث، فقد انخفضت قيمتها بصفة مؤقتة، حيث أتاح النشر للمهتمين الفرصة للاطلاع على الصور مما أغناهم عن الاطلاع على الأصل، أو على الأقل لم يجعله مطلباً مُلِحاً.

كذلك فإن الدارسين الأمريكيين قاموا بعملهم بمهارة عظيمة، جعلت الصور التي التقطوها لللقائف تأتي على درجة عالية من الدقة بشكل غير عادي، فضلاً عن أنهم فعلوا ذلك بسرعة، فقدموا خدمة جليظة للباحثين والدارسين لاشك في أنهم يدينون لهم بهذا الفضل.

وفي الأردن شرع (هاردنج) في البحث عن المزيد من اللقائف في المنطقة

التي يوجد فيها الكهف الذي سبق العثور على اللقائف فيه ، يساعده في ذلك شخص يدعى يوسف سعد ، وعاونها في ذلك المسؤولون الأردنيون ، وكان من بينهم ضابط إنجليزي يعمل في الجيش الأردني يدعى البريجادير (آشتون) Ashton ، وآخر عربي يدعى عكاش الزين Akkash El Zebn وكان ذلك في ١٥ من فبراير ١٩٤٩ .

وفي ذلك الوقت كان المطران السرياني قد رفع الثمن الذي يطلبه في اللقائف التي في حوزته إلى مليون دولار، فلما أذاعت الإذاعات المختلفة هذا الخبر، وسمع في الأردن بادر البدو إلى رفع أثمان اللقائف التي في حوزتهم ، وانتشرت في المنطقة حمى البحث عن المزيد منها، وقد أدى هذا إلى أضرار كثيرة، منها أنه أصبح متعذراً جمع اللقائف السليمة وشذرات اللقائف التي كانت قد تمزقت ، سواء بفعل العوامل الطبيعية ، أو بفعل الإنسان ، في مكان واحد من أجل دراستها بشكل متكامل ، واستخلاص أكبر قدر من المعلومات منها ، كذلك فإن رفع البدو لأسعار ما في حوزتهم من اللقائف وقف عقبة في طريق جمعها ، وحوّلها إلى سلعة يضارب الناس عليها دون أي تقدير لقيمتها التاريخية والعلمية .

وما يؤسف له حقاً أن هذه الثروة التي لا تقدر بمال قد ضاعت من أيدينا ، وانتقلت إلى اليهود والمؤسسات الكنسية والتبشيرية مما حرمانا من أن ندرسها في ضوء ماورد في القرآن والسنة بشأن اليهود ، سواء قبل بعثة المسيح أو بعد بعثته ، وما اشتملت عليه رسالته من أمور لم يلبث (يس) أن طمسها بآرائه التثليثية ، ولولا ما أبداه بعض العلماء الغربيين من اهتمام كبير بوثائق قران ، وإصرارهم على تصويرها والإطلاع عليها ، وتصديهم لدراستها بتأن ملحوظ ، وبقدر كبير من الموضوعية والحياد ، لنجح اليهود في إخفائها تظاهرهم الكنائس المسيحية على اختلافها .

والملاحظ أن لقائف البحر الميت تم العثور عليها في أحد عشر كهفاً من تلك الكهوف التي توجد في منطقة (خربة قران) مما يدل على أن أعضاء هذه الطائفة ، بعكس الطوائف الأخرى من اليهود ، اعتادوا استخدام الكهوف ، سواء

للإقامة فيها، أو لوضع وثاقهم الهامة، وقد تبين من فحص اللفائف أنها تنقسم إلى ثلاثة أبواب:

أولاً: نصوص العهد القديم كلها (التوراة) ما عدا سفر (استير).

ثانياً: كتب من العهد القديم يبدو أنها لا تتفق مع الأفكار المسيحية مما جعل العلماء الذين اطلعوا على الوثائق، وكلهم من المسيحيين أو من اليهود يدعون أنها منحولة (١٨).

ثالثاً: مخطوطات جماعة قران نفسها وتضم: شريعة الجماعة، ونصوصاً لصلاتهم، صلوات المغرب والفجر لكل أيام الشهر، وقد تبين أن هذه الجماعة كانت تصلى جميع الأوقات التي يصلها المسلمون الآن، كما وجدت تفسيرات للتوراة، وتقويم شمسي كانوا يتبعونه في قران بدل التقويم القمري الذي يعمل بموجبه اليهود وكهنة الهيكل.

ولعل وجود تقويمين أحدهما قري، وهو الذي كان اليهود يتبعونه ولا يزالون، وآخر شمسي هو الذي كان يتبعه الآسنيون، يفسر لنا لماذا أضاف الله تعالى في القرآن الكريم تسع سنوات بعد الثلاثمائة عندما قال في القرآن:

﴿وَلَيْتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (١٩).

فليس المقصود بذلك الفرق بين السنين الميلادية والسنين الهجرية كما قال بعض المفسرين، أو حتى السنين طبقاً للتقويم القمري الذي كان العرب يطبقونه حتى قبل الإسلام، وإنما المقصود هنا هو التقويم اليهودي الذي كان عامة اليهود يطبقونه ولا يزالون، فهو يزيد بمقدار تسع سنوات عن حساب المدة التي لبثها الفتية في الكهف طبقاً للتقويم الشمسي الذي كانت طائفة قران تأخذ به، وهذا وجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، أرد الله أن يفحم به اليهود الذين لم يكن هناك سواهم يعرف هذا الاختلاف، وكذلك الكنيسة المسيحية التي كشف (آيجرو) المأزق الذي واجهته في أول نشأتها نتيجة لاختلاف الأعياد اليهودية التي تعترف بها مسيحية بولس مع التقويم القمري الذي كان مطبقاً أيام المسيح، وكيف قام

(١٨) يوسف درة حداد، المرجع السابق، صفحة ٦٠٦.

(١٩) سورة الكهف، الآية ٢٥.

كتاب الأناجيل بإحداث تعديل أو قل تزوير فى التاريخ الذى ادَّعَوْا أن المسيح احتفل فيه بعيد الفصح، وهكذا نجد أن الرد الذى جاء به القرآن الكريم على سؤال اليهود، بواسطة مشركى قريش، عن الفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول جاء مشتملاً على أسرار يهودية صرفة لا يعرفها غيرهم، أو بالأصح لم يكن أحد غيرهم يعرفها حتى جرى الكشف عن كهوف قران والعثور على ما كان فيها من لفائف .

وقد استمر البحث فى موقع قران حتى عام ١٩٥٦ حيث أجريت بعض الحفائر التى أسفرت عن نتائج فى غاية الأهمية، فقد أمكن أخيراً إماطة اللثام عن هذه المستعمرة الغامضة التى كان يعيش فيها الآسينيون، وتدل العملة العديدة التى وجدت فى الموقع على أنه كان مسكوناً خلال فترة تمتد تقريباً من القرن الثانى قبل الميلاد حتى الحروب اليهودية (الأعوام من ٦٠ إلى ٧٠ ميلادية). ولكن هناك اختلاف بين المؤرخين حول تاريخ ظهور هذه الطائفة، نظراً لوجود أحد الأسفار المنسوبة إليها والذى اختلف المؤرخون بشأنه (ايسفلت) يرى أن هذا السفر ألف حوالى عام مائة قبل الميلاد، فى حين يرجعه (أولبرايت) إلى بداية القرن الثالث قبل الميلاد. فى حين أن (زتلين) Zeitlin يرجعه إلى القرن الخامس قبل الميلاد (٢٠). ولكن الثابت بعد ما أجرى من دراسات على اللفائف التى تم العثور عليها أنها ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد وإن كان ليس من المستبعد أن يرجع تاريخ نشأة الطائفة إلى ما قبل ذلك بقرن أو قرنين، وهو ما يتفق مع مقاله (زتلين).

ويضم المستوطن الآسينى، كما هو واضح الآن: صوامع الغلال، وحوانيت، وفرنأ للخبيز، ومصبغة ومغسلاً، ومحللاً لصناعة الفخار، كما يضم كثيراً من الأحواض، والقنوات التى تصل فيما بينها، وبإيجاز نجد فى المستوطنة كل ما هو لازم للحياة المادية لمجتمع صحراوي منعزل، يعيش بعيداً عن أى مركز حضارى، الأمر الذى يضطره لأن يعمل على توفير ما يحتاج إليه للعيش والبقاء، ولم يكن فى استطاعة أعضاء هذه الجماعة العيش فى المنشأة القائمة فوق هذه الرجة من الأرض، التى تخلو من المهاجع وغرف النوم؛ إذ كانت مخصصة لطقوس الجماعة،

(٢٠) سبينو موسكاتى، الحضارات السامية القديمة، صفحة ٣٨١.

ولهذا لاشك أنهم أقاموا على مقربة منها فى أكواخ وخبام، وكذلك فى الكهوف المتناثرة فى الجبل القريب منها.

قصة طائفة قران :

مما ورد فى لفائف البحر الميت أن الآسينيين قادهم المعلم الصالح إلى منطقة قران، بعد أن أصابهم الاضطهاد من عامة اليهود، بسبب معتقداتهم، حيث عاشوا منذ حوالى سنة ١٤٠ قبل الميلاد إلى أن تم تدمير موقع قران نتيجة لحدوث زلزال شديد سنة ٣١ قبل الميلاد.

ومن حسن حظهم أنهم لم يصابوا بخسائر كبيرة فى الأرواح نتيجة لهذا الزلزال، حيث أن الملك هيرود الكبير (حكم بين ٣٧ و٣٤ ق.م) كان قد سمح لهم بالعودة إلى القدس قبل وقوع الزلزال بعدة سنوات، فعاد عدد كبير منهم، إلا أنه بعد موت (هيرود) ازدادت الضغوط ضد الآسينيين، فعادوا إلى البرية وعمرروا موطنهم القديم فى قران، حيث بقوا مقيمين به إلى سنة ٦٨ ميلادية.

والواقع أن عداا الطوائف اليهودية هذه الطائفة لم يكن سببه اعتناق أفرادها كلهم أو بعضهم للنصرانية بعد ظهور المسيح، وإنما هو عداا يرجع إلى القرن السابق على الميلاد، كان السبب فيه أن زعيم هذه الطائفة كان عدواً لدوداً للكهنوت اليهودى الرسمى الذى كان الزعيم يعيب عليه فجوره وازدراءه للناموس، وقد جاهر بعدائه لليهودية الرسمية، وخدمة الهيكل التى اعتبرها فاسدة، وقد انضم إليه الكثير من الأحرار والعلمانيين، واعتنقوا مذهبه فى التشيع، وأقام هذا المعلم فى معتزل قران يحف به أنصاره من المؤمنين حيث أنشأ مجتمع العهد الجديد، وكان على هذا العهد أن يمثل، بالمقارنة مع «الضالين» وهو الاسم الذى أطلقه على المجتمع اليهودى الرسمى، إسرائيل الحقيقية إسرائيل الرب. ومثل هذا المصطلح، الذى كان بطبيعة الحال هدفاً لأحقاد السلطات اليهودية، شجب ردهم وضلالهم، فلم يكن منهم إلا أن واجهوه فى عنف، وتصف وثائق قران فى مواضع كثيرة الاضطهاد الدموى الذى وقع على الطائفة بأنه اضطهاد «بالسيف» انتهى بالقبض على المعلم ومحاكمته وتعذيبه، وربما انتهى الأمر بإعدامه أيضاً (٢١).

(٢١) المرجع السابق، صفحة ٩٨.

وإذا كان ذلك قد حدث فمن المحتمل أن يكون حدوثه بين عامي ٦٧ و ٦٣ قبل الميلاد، وقد انتهى الخلاف بين هذه الطائفة وبين اليهود إلى طرد أفرادها من اورشليم، فانسحبت إلى مدينة بللا Pella الصغيرة وراء نهر الأردن، حيث أقامت إلى أن ظهر المسيح عليه السلام، فأمنت به بشراً رسولاً، وأقامت كنيسة مسيحية يهودية تضم اليهود الذين آمنوا بالمسيح رسولاً، واعتزلت كنائس اليهود المنكرين للمسيح، وأقامت شرقاً حيث تحرم الإقامة على سائر اليهود، وظلت رديحاً من الزمن لاهى إسرائيلية خالصة، ولا مسيحية خالصة (٢٢).

أما (آليجرو) فإنه يقول عن طائفة قران إن بداية ظهورها كانت أثناء حكم (جون هيركانوس) John Hyrcanus (١٣٥ - ١٠٤ ق.م) أو بعده بقليل، وإن نهايتها العنيفة والسريعة كانت قبل تدمير اورشليم عام ٧٠ ميلادية، أما ما بين هذين التاريخين من تفاصيل، فإنه يمكننا أن نستوفيها بالاستعانة ببعض التعليقات التوراتية التي وجدت في مكتبة قران، وهي على درجة كبيرة من الأهمية، والتي تبين منها أن الجماعة كانت تؤمن، وهو ما افترض أن المعلم نفسه قد قاله، أن قائدها قد تلقى أمراً من الله بجمع بعض كهنة اورشليم معاً وأخذهم إلى الصحراء، باعتبارهم جماعة من المؤمنين يرتبط أفرادها بعضهم ببعض بقوة، والغرض من ذلك هو أن يظلوا أنقياء غير ملوثين أثناء تلك الفترة التي سادها الارتداد عن العقيدة الصحيحة، وإلى أن يجيء ملكوت الله، وليس هناك شك في أن روح الوحدة التي أضاءت كتابات الطائفة، والصرامة والدقة التي تميز بها النظام الذي وضعته لنفسها، تدل على التأثير القوي لشخصية القائد أو المعلم، الذي توفرت بيانات مختلفة بشأن ما أصابه من اضطهاد على يدي شخص آخر يرمز إليه في الغالب بأنه الكاهن الشرير، ومن تعليق هام على كتاب ناحوم، عثر عليه بين وثائق قران، يمكن أن نستنتج أن هذا الكاهن الشرير هو الذي أشير إليه بالاسم لمستعار «أسد الغضب» The Lion of warth، وليس من الصعب أن نلاحظ التطابق بين هذه الصورة وصورة الكاهن - الملك اليهودي ألكسندر جانيوس Alexander Jannaeus الذي حكم في الفترة الواقعة بين عامي ١٠٣ و ٧٦ ق.م، وقد سبق اكتشاف هذا التعليق ما أبداه بعض الدارسين من ملاحظات

(٢٢) العقاد المرجع السابق، صفحة ١٤٤.

تبين منها أن هذا الطاغية تتوفر فيه خصائص مضطهد هذه الطائفة .

وما ذكرته وثيقة دمشق يتبين أنها وصفت المكان الذي نفيت إليه الطائفة في أول ظهورها بأنه «دمشق»، وأن ذلك كان بعد النبي (عمواس) Amos وربما النبي زكريا، وفيما يتعلق بنظام الجماعة فقد عثر على وثيقة تكاد تكون كاملة وجدت في مكتبة قران، تسمى نظام الجماعة، أو كما أصبحت تعرف بعد أن ترجمها أحد الدارسين الأمريكيين «أبجدية النظام». كما تبين أن هذه الوثيقة ملحقين اثنين، أحدهما عنوانه: نظام كل تجمع إسرائيلي في الأيام الأخيرة، والثاني مجموعة منح البركة Benedictions وكلا الوثيقتين: الأبجدية ووثيقة دمشق تشيران إلى كتيب آخر يسمى كتاب التأمل Book of Hagi كان قد وضعه قائدا الطائفة ليتعلمه الأعضاء من الشباب .

وكان من مبادئهم العيش معاً في جماعة مشتركة، يسودها التواضع العادل والصدق والحب المخلص، والاعتبار الصحيح لكل زميل في المجلس المقدس، وكانوا يرددون دائماً أنه «لن يكون للأناية مكان في جماعتنا» و«لن يستمر إنسان في معاندة قلبه بارتكاب الإثم بعد أن ملك إرادته وبصيرته وعرف هدفه» وكانوا يتناولون وجباتهم جماعة ويغنون صلواتهم معاً، وعندما يصبح أحدهم عضواً كامل العضوية في الطائفة، فإنه يخلط ممتلكاته الدنيوية بممتلكات الطائفة، ويحتفظ فقط بحاجاته الضرورية كالثياب .

وقد سبق أن ذكرنا ما قاله الأستاذ العقاد عن طائفة الآسينيين من أنها كانت تطبق نظام الملكية الجماعية، وكان مبدؤهم: «أن المرء يجيا بالمشاركة مع الإخوة — فعاً سوف يطعمون، ومعاً سوف يتعبدون، ومعاً سوف يتذاكرون» (٢٣) .

وعلى خلاف ما ذكره العقاد من أن هذه الطائفة لم تكن تؤمن بالرئاسة ولا بالسلطة، فإن المؤرخ يوسفوس يقول: إن مبدأ الطاعة العمياء كان يحكم المجتمع الآسيني «فهم لا يفعلون شيئاً بغير أوامر من رؤسائهم» ولذلك كانوا حريصين على أن يكون لكل جماعة منهم رئيس، وكانوا يطلقون على هؤلاء الرؤساء اسم

(٢٣) اندريه ديوسومير، المشاكل الخاصة بلقائف البحر الميت، مجلة ديوجين، مصباح الفكر العدد ١٨،

السنة السادسة ١٩٧٢، صفحة ٨٤ .

(مباقر) بالعبرية ومعناه (المفتشون) وتصف وثيقة دمشق حدود اختصاصاتهم في عبارات مسهبة، ومثل هذه الجماعة الدينية مثل جيش يخضع لنظم صارمة، تبلغ درجة فريدة من الكمال، ويُحدد كل من الإخوة في قائمة المليشيا برقم معين يتفق ومكانته في الجماعة، ويتم تحديد هذا الرقم كل عام في الاجتماعات العامة للطائفة، وعلى كل فرد أن يطيع طاعة عمياء من هو أكبر منه سناً وأعلى منزلة، وكل آسينى يؤدي عمله، ويستعد دائماً للجهاد في سبيل الله. وكان الهدف الرئيسى للآسينى هو الطهر والقداسة، والمعركة التى يخوضها أولاً وأخيراً معركة روحية.

وكانوا شديدي الإيمان بالله الواحد، وبالقضاء والقدر، وبالبعث والحساب، وبالثواب والعقاب، وكان نظام الكنيسة الآسينية يفرض على أعضاء الطائفة أن يتحد كل عضو من أعضائها الذين يكرسون أنفسهم للمثل العليا المقدسة المطلقة مع الآخر، بواسطة الإحساس الرقيق، الذى لا يأتيه الباطل، ولا بد أن يكون لهؤلاء جميعاً قلب واحد وروح واحدة.

وكان أعضاء هذه الطائفة يتسمون بكثير من الفضائل، منها التخلّى عن البهجة، والالتزام بالعفة، وازدراء الغنى، وتوقير الفقر، وحب الصدق، وبغض الكذب، وبالحياء، والتواضع والرحمة والصبر والتوبة. وتمتدح الكتابات المختلفة هذه الفضائل الجوهريّة في كل موضع، فتقرأ في سفر الأحكام «لن أفعل الشر لأى مخلوق، وسوف أسعى من أجل خير كل إنسان» وفي فقرة أخرى «روحى لن تشتهى الغنى.. ومن شفاهى لن يسمع أى إنسان أى بهتان أو رياء أو كذب». ويصفون أنفسهم بأنهم فقراء (أبيونيون) كما عرفوا في الفترة اللاحقة لوفاة السيد المسيح، ولذلك قيل عنهم فى جلاء: إن طائفتهم كانت «مخفل الفقراء»^(٢٤) وكان لهذه الطائفة زعيمان أو رئيسان: المفتش الكاهن ويسمى بالعبرية (paqid) والمراقب أو الناظر أو المشرف overseer ويسمى بالعبرية (medaqer) وكانت الواجبات اليومية دينية أساساً، وتشمل الاختبارات الروحية للدارسين أو الطلبة أو التلاميذ الذين يرغبون فى الحصول على عضوية الجماعة، وكان المراقب العام مسئولاً عن الشؤون الإدارية مثل العمل والميزانية،

(٢٤) المرجع السابق، صفحة ٩٤.

وكان هناك مراقب فى كل خيمة يضم إلى جانب واجباته التنفيذية الإرشاد وتكوين التلاميذ، وإعدادهم للدخول فى العضوية، وهذا المزج المثير للفضول والعجيب بين الواجبات الإدارية والدينية، قد وجد مرة أخرى فى وظيفة episkopos أو الأسقف Bishop فى الكنيسة المسيحية الأولى.

ومن بين واجبات المراقب إدارة جلسات المجمع، وكان من تعاليمهم فى الاجتماعات: أن يجلس كل رجل فى المكان المخصص لمن هم فى درجته أو مكانته، فيجلس الكهنة أولاً، يليهم الأعضاء الأصغر، ثم بقية الناس حسب درجاتهم المقررة، وبهذا النظام يكون لهم أن يوجهوا الأسئلة المتعلقة بالقرار الذى يراد اتخاذه، وعلى كل رجل أن يعرض على المجلس ما يتوفر لديه من معلومات تهم الجماعة، ولا ينبغى أن يقاطع أى رجل زميله أثناء حديثه، كما يجب ترك أى رجل يتخطى وضعه من أجل أن يتكلم، ومن يطلب الكلام ينبغى أن يدعى للكلام فى دوره، وفى اجتماع المجلس لا يجب ترك أى رجل ليقول ما من شأنه تكدير الجماعة، أو أن يتكلم بدون أن يتلقى الإذن بذلك من المراقب، وإذا رغب أى رجل ليس فى وضع يسمح له بالتحدث أن يتكلم، فإنه يجب أن يقف على قدميه ويقول: «لدى شىء أقوله للجميع» فإذا ناداه المراقب كان له أن يتكلم.

وكان الالتزام بهذا النظام دقيقاً بحيث إن أى انتهاك له، وهو أمر لا يمكن تصوره، كان يترتب عليه توقيع عقوبة قاسية على العضو المخالف.

وكان من أهم ما كشفت عنه لفائف البحر الميت أو كما تسمى أحياناً لفائف قران، ذلك التماثل الواضح بين لغة الآسينيين الأدبية، ولغة إنجيل يوحنا، مما جعل كثيراً من المهتمين بدراسة المسيحية يرون أن يوحنا، وهو أحد الحواريين، قد نقل عن الآسينيين جزءاً هاماً من إنجيله، وقد دعم هذا الرأى أن يوحنا كان قد تتلمذ على النبى يحيى (يوحنا المعمدان) قبل ظهور المسيح وانضمامه إليه، وقد قيل: إن النبى يحيى نفسه كان من الآسينيين، وإن كان قد اختلف معهم فى مسألة التعميد، على ما سبق أن بينا، فهناك أكثر من دليل على أنه كان منهم، ومن بينها وحدة الفكر والتعبير.

ولكن المعارضين لهذا الرأي^(٢٥) حاولوا أن يدحضوه بأن ساقوا بعض الأدلة المضادة التي استمدوها من إنجيل يوحنا، وفي مقدمتها أنه على خلاف الآسنيين كان يؤمن بالمسيح الإله، وليس المسيح البشر الرسول كما كانوا يعتقدون، وفات هؤلاء المعارضين أن ما يسمى بإنجيل يوحنا لم يكتبه يوحنا نفسه، وإنما كتبه غيره ممن جاءوا بعده بوقت ليس بالقصير، مما يرجح أن يكونوا قد أضافوا إليه ما قيل عن إيمانه بالمسيح الإله، وهى الفكرة التي لم تظهر إلا على يدى بولس، والتي ثبت بالدليل القاطع أنه لا المسيح ولا النبي يحيى من قبله أو أحد من الحواريين قالها.

أهمية وثائق قران:

فى سنة ١٩٣٩ كتب أحد الدارسين النصيين الكبار وهو سير فردريك كنيون Sir Frederick Kenyon يقول: «فى الحقيقة أنه لا يوجد أى احتمال للعثور على مخطوطات من النص العبرى للتوراة يرجع تاريخها إلى الفترة السابقة على تكوين النص الذى نعرفه باسم (الماسورى) Massoretic» ويقول (آلجرو)^(٢٦) إنه من دواعى السرور أن سير فردريك عاش حتى رأى قوله هذا يتعرض للدحض بصورة عجيبة فى عام ١٩٤٨. ويضيف إلى ذلك قوله: «وللحقيقة فإنه بواسطة ماتم العثور عليه فى كهف قران أمكننا أن نحترق» سد الماسورية». فقد أتاحت هذه المخطوطات الحصول على نصوص يرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الثالث قبل الميلاد، فيسرت بذلك ظهور بعض الأفكار ذات المغزى بالنسبة للمستقبل النقدى لنصوص العهد القديم، وربما يجب علينا، على حد قول آلجرو، أن نقوم من جديد بترتيب بعض الحقائق الأساسية بشأن انتقال الإنجيل، والترجمات المختلفة له. فهذه الترجمات التى اعتبرت قياسية Standard translation للعهد القديم استندت تقريباً إلى مخطوطات متأخرة لا ترجع إلى أبعد من القرنين التاسع أو العاشر الميلاديين، فى حين أن الكتاب المبكر جداً للشريعة البروتستانتية Protestant Canon كان قد كتب فى القرن الثالث قبل الميلاد، وهذه الفجوة الهامة يمكن أن تلقى الشك على صدق النص المطبق، ولا يقلل من

(٢٥) يوسف درة حداد، المرجع السابق، صفحة ٦١٤.

(٢٦) op.cit, p. 59

هذا الشك تلك العناية غير العادية التي بذلها المؤلفون اليهود، الذين نقلوا كتاباتهم المقدسة، فهم قد اهتموا بالشكل أكثر من اهتمامهم بالموضوع، فالتزموا بالقواعد التي اشتملت عليها الأعمال التلمودية، والخاصة بالإجراء الذي يجب اتباعه عند نسخ الكتب المقدسة وبالذات القانون Canon والكتب الخمسة الأولى (الأسفار الخمسة) من التوراة، وكان السبب الذي دفع اليهود إلى اتخاذ هذا الموقف هو تدمير مركزهم الحياتي والثقافي في أورشليم التي دمرت عام ٧٠ ميلادية. مما جعل المراقبين الدينيين في هذه المرحلة التي سميت مرحلة التثنت يركزون أكثر فأكثر على القانون Canon وعلى الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، واعتبروا أنها قد حلت محل المعبد كمركز لليهودية، كذلك فإنه أصبح ضرورياً، من وجهة نظرهم، لوحدة الإيمان أن يكون النص التوراتي قياسياً، وأن يكون من المرونة بحيث يجرى تنقيحه إلى الأفضل، تجنباً لوجود أى اختلافات خطيرة.

وانعقد المجمع اليهودي Synode فى جامينا Jamina بالقرب من يافا ما بين عامى ٩٠ ومائة ميلادية، حيث نوقشت بعض المسائل الخاصة بإمكانية قبول بعض الكتب التي كانت قد انتشرت بين اليهود، وفى هذا الوقت أيضاً، وإلى جانب التوسع فى الشريعة Canon، جرى الاتفاق على تسميط النص (أى جعله نظئياً) الذى اعتبر قياسياً وذلك بعد الموافقة عليه، وربما اتفق أيضاً على وجوب إضافته إلى ماسوف يكتب من نسخ فى المستقبل، وبالع اليهود فى الاهتمام بالشكل إلى الحد الذى جعلهم يقررون قواعد ملزمة لمن ينسخ التوراة مثل المسافة بين السطور، وحجم الأعمدة والمسافات التي بين الكلمات والجمل، ولون ونوع الحبر المستخدم فى الكتابة، وشكل الأغلفة، وغير ذلك مما جرى تحديده والإلزام به فى كل زمان مكان.

لذلك فإنه ابتداء من نهاية القرن الأول الميلادى تحدد النص القياسى للتوراة، وجرى الحفاظ عليه إلى الآن مع بعض الاختلافات التي تتفاوت فى الأهمية، ومع ذلك يمكن القول: إن مجمع جامينا لم يقيم بتكوين نص قياسى، بل إنه لم يقيم بعمل ترجمة انتقائية من ترجمات كثيرة، وكل ما فعله أنه اختار نصاً معيناً من بين عدد من النسخ التي كانت شائعة فى الجماعات اليهودية فى وقت سابق، واعتبره قياسياً لكل زمان؛ ولذلك فإن نسخة التوراة التي وجدت فى مكتبة قران تتميز

بأهمية خاصة، كما أن الدليل المستمد منها يكتسب قيمة خاصة هو الآخر. ويسمى النص الذى اختاره مجمع جامينا ليكون هو النص القياسى بـ (الماسورى) Massoretic وهو النص الذى يقف وراء الترجمات الإنجليزية لما يسمى بالعهد القديم. وتوجد فضلاً عن التوراة الماسورية والتي يشار إليها اختصاراً بالحرفين (AT) الترجمة اليونانية للتوراة، أو ما يسمى بالنسخة السبعينية Septuagint والتي يشار إليها اختصاراً بالحروف (Lxx) والتي تعتبر أكثر نسخ التوراة أهمية، وتوجد فى الكتب المقدسة التى ترجع إلى الأزمنة المسيحية المبكرة جداً، وتحتوى على أعمال اعتبرها آباء الكنيسة الأوائل جزءاً من الكتابات المشكوك فى صحتها أو فى صحة نسبتها إلى من تعزى إليهم من المؤلفين، مما جعلهم يستبعدونها (وهى أربعة عشر جزءاً أو سफراً تلحق أحياناً بالعهد القديم من الكتاب المقدس، ولكن البروتستانت لا يعترفون بها ويسمونها الابوكريفا Apocrypha الإنجليزية) وترجع قصة هذه الترجمة المسماة بالسبعينية إلى القرن الثالث قبل الميلاد عندما سافر عدد من الدارسين اليهود إلى مصر أثناء حكم بطليموس فلادلفيوس (٢٨٥ - ٢٤٦ ق.م) حيث أخذوا إلى الإسكندرية، لكى يضعوا نسخة يونانية منقحة للكتب اليهودية المقدسة.

وتروى القصة كيف أن الملك كان قد تناقش مع أمين مكتبته فى هذا العمل، بعد أن سمع عن عجائب هذه الكتب، وكلف أمين المكتبة بالكتابة إلى الحبر الأكبر لليهود فى أورشليم، يطلب منه إيفاد عدد من أحبار اليهود إلى الإسكندرية لكى يقوموا بترجمة التوراة إلى اليونانية، ولبى الحبر الأكبر الطلب وبعث باثنين وسبعين نبيلاً يهودياً، اختيروا من القبائل اليهودية الاثنتى عشرة، بواقع ستة أفراد من كل قبيلة حلوا معهم نسخة من القانون، كتبت فى صحف من الذهب، فاستقبلوا استقبالاً عظيماً تفرغوا بعده لأداء واجهم، فعملوا منفصلين أول الأمر، ولما انتهوا جميعاً اجتمعوا وأجروا مقارنة بين نتائج عمل كل منهم، وأخيراً أخرجوا الترجمة اليونانية التى أصبحت منذ ذلك الوقت تعرف بالنسخة السبعينية أو ترجمة «السبعين» Seventy.

وكعادة اليهود فى الجنوح إلى المبالغة فقد أضافوا إلى الرواية الكثير من الأمور الغريبة، منها: كيف أن المترجمين اليهود وضعوا فى زنازين انفرادية، أو كل اثنين

معاً فى زلزانه، فبلغ عددها ستاً وثلاثين زلزانه، فوضعوا الترجمة فى اثنين وسبعين يوماً بالضبط، وأنهم عندما أجروا المقارنة بينها وجدوا أنها يطابق بعضها بعضاً، فاستدلوا من ذلك على أن العمل كان بوحي من الله.

ومع ذلك فإن دراسة هذه النسخة أسفرت عن نتيجة على جانب كبير من الأهمية، وهى أن الجزء الأول من التوراة المسمى بالقانون، هو الذى ترجم فى الإسكندرية حوالى ذلك التاريخ الذى ذكر أن الأحبار وصلوا فيه إليها، وكانوا يحملونه مكتوباً فى صحف من الذهب، مما يدل على أن المسألة لم يكن فيها وحي من الله أو أى شىء مما زعموه، أما الكتب الأخرى من العهد القديم فإنها أضيفت فى وقت متأخر بواسطة مترجمين مختلفين، يوجد بينهم تباين هائل فى الكفاءة وفى الأسلوب، مما جعل المقياس العام للترجمة غير منتظم.

وأصبحت النسخة السبعينية (Lxx) هى توراة اليهود الذين يتكلمون اليونانية، ووزعت على نطاق واسع من عالم البحر المتوسط، وإلى هذه الحقيقة يشير آدموند جاكوب فهو يقول: إنه فى البدء لم يكن هناك نص واحد فقط، بل كان هناك تعدد فى النصوص، وفى القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً كان هناك على الأقل مدونات للنص العبرى للتوراة. كان هناك النص المحقق (الماورى) والنص الذى استخدم، جزئياً على الأقل، فى الترجمة اليونانية، والنص المعروف بالسامرى (أو أسفار موسى الخمسة) Pentateuque Samaritan (٢٧).

ومع ظهور المسيحية غير اليهودية Gentile Christianity والتي تتكون من المسيحيين الأوروبيين الذين كانوا يعبدون الأوثان، ولم يكونوا يهوداً فى الأصل، أصبحت النسخة اليونانية هى الكتاب المقدس للكنيسة الأولى، فلما استخدمها اللاهوتيون المسيحيون فيما نشب من منازعات لاهوتية بينهم وبين اليهود، أنكرها هؤلاء وبدءوا فى إعداد ترجمات يونانية جديدة لتنافس الترجمة السبعينية، وكانت أكثر هذه الترجمات أهمية هى الترجمة المسماة (أكويلا) Aquila التي وضعت فى منتصف القرن الثانى بعد الميلاد، ويظهر أنها اعتمدت على النص العبرى المسمى بـ (الماورى) أكثر مما اعتمدت على الترجمة السبعينية، وقد استخدم اليهود هذه

(٢٧) موريس بوكاى، دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة، صفحة ١٨.

الترجمة بحماس ملحوظ فى الجدل والنقاش والدرس والتعليم، ومع ذلك فإن استخدامها لم يلق استحساناً أو احتقاراً من جانب الدارسين المسيحيين أمثال (أوريجين) Origen و(جيروم) Jerome وبعد نصف قرن ظهرت ترجمة (ثيودوتيون) Theodotion وكانت أكثر قرباً من الأكويلا والترجمة الإنجليزية المتداولة الآن، منها إلى الترجمة السبعينية، أما الترجمة الرابعة فقد قام بها (سيماشوس) Symmachus وظهرت بعد وقت قصير من ظهور ترجمة (ثيودوتيون)، وتميز عمل (سيماشوس) بأنه أكثر تحراً، كما أنه ينتمى إلى النمط الإغريقى .

وفى النصف الأول من القرن الثالث عشر سكندرى يدعى (اوريجين) على ثلاث ترجمات يونانية أخرى للتوراة، كانت موجودة إلى جانب النسخة السبعينية، ولاحظ أن بينها تناقضاً، فعمل من جانبه على وضع ترجمة أقرب إلى الكمال سماها (هكسابلا) Hexapla أو ذات الستة الأقسام Six-fold versions حيث جمع فيها بين ست نسخ للتوراة أفرد لكل نسخة منها عموداً، خصص العمود الأول للنسخة العبرية التى اعتبرت قياسية، وخصص العمود الثانى للنسخة العبرية المترجمة إلى اليونانية. فى حين خصص العمود الثالث للترجمة اليونانية المسماة (اكويلا)، أما العمود الرابع فخصصه لترجمة سيماشوس، فى حين خصص العمود الخامس للترجمة السبعينية بعد أن قام بتفقيحها بنفسه، أما العمود الأخير فخصصه لترجمة ثيودوتيون اليونانية .

وقد لقى التفقيح الذى أجراه (أوريجين) للنسخة السبعينية نجاحاً ملحوظاً أدى إلى تحول الاهتمام من النسخة السبعينية إلى النسخة المنقحة، بل إنه أدى إلى إحداث تغيير كبير فى هذه الترجمة، جعلها تبدو كما لو كانت شيئاً مختلفاً يخص أوريجين ذاته، كما أنه أدى إلى التأثير بشكل ملحوظ فى النص .

ومن هذا البيان المختصر لتاريخ النسخة السبعينية، يتبين أنه كانت هناك جهود كثيرة، الهدف منها جعل هذه الترجمة أكثر تطابقاً مع النسخة العبرية المسماة بـ(الماسورة). ومع ذلك فإنها لم تنجح فى القضاء على الاختلافات التى قامت بين النصين، بل ربما تكون قد أدت إلى إبرازها بشكل أكبر، وكان حلم الدارسين الذين يعملون فى هذا الحقل، هو أن يكتشفوا نصاً عبرياً من نفس عائلة

النسخة السبعينية، وكانوا يحاولون أن يصوروا لأنفسهم الكيفية التي أدى بها المترجمون اليهود القدماء عملهم، وما أضافوه من عندياتهم، وما الذي تركوه، وأن يجتبروا معلوماتهم في العبرية، وعلى أى أساس تعاملوا مع الصعوبات الموجودة في النص.

ولكن تحقيق هذا الحلم كان يحتاج إلى اكتشاف كتب من التوراة ترجع إلى الأيام السابقة على مجمع جامينا، أو بمعنى أصح، ترجع إلى الوراء نحو الوقت الذي تمت فيه الترجمات اليونانية كلها أمكن، وقد ظل تحقيق هذا الحلم أمراً ميؤساً منه إلى أن حل عام ١٩٥٣، ففيه اكتشفت لفائف أخرى أسفرت دراستها عن نتائج بالغة الأهمية، فقد لاحظ (فرانك كروس) Frank Cross أثناء عمله في الكهف الرابع من كهوف قران وجود قطع من اللفائف الجلدية تشتمل على كتاب (صمويل) Samuel. وبدراسته تبين له أنه يختلف اختلافاً كاملاً مع النسخة الماسورية، ولكي يطمئن أكثر قام بمراجعة النص مرة أخرى فتأكد له وجود الاختلاف، بل ووجود فقرة كاملة في النص القمراني لم ترد في النسخة العبرية القياسية.

وبدأ كروس يرجع إلى النسخ الرئيسية، فوجد، تقريباً أن النص الذي عثر عليه يتطابق كلمة بكلمة مع الترجمة اليونانية السبعينية، وقام كروس بوصل القطع الثمينة من الجلد التي تتكون منها شذرات اللفائف، وكلما مر الوقت وجد تطابقاً إيجابياً مع النسخة السبعينية، واختلافاً مع النسخة الماسورية، إلى أن وصل في النهاية إلى الوضع الذي أصبح فيه قادراً على التأكد من أن أمامه الإجابة عن الحلم الذي طالما راود خيال المهتمين بنقد النص.

وباستمراره في الدراسة اكتشف أكثر فأكثر أن المخطوطة الثمينة تختلف أحياناً عن النسختين السبعينية والماسورية، وتتفق أحياناً أخرى مع الماسورية ضد السبعينية، مما يدل على افتقار النسخ المختلفة للتوراة إلى الضبط الذي هو شرط أساسي لصحتها والثقة فيها، وقد نشر (كروس) جزءاً من النص الجديد في شهر ديسمبر ١٩٥٣ وقارن بينه وبين نص النسخة السبعينية، وأبرز الاختلافات التي توجد في النصين.

وبعد عامين نشر دكتور كروس بعض الشذرات الأخرى التى تشتمل على أجزاء من كتاب (صمويل) وتعد من أقدم المخطوطات التى تم العثور عليها فى مكتبة قران حتى الآن، والتى ترجع—طبقاً لما يعتقد كروس—إلى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، وقد لخص نتائج البحث الحذر لما اشتملت عليه الشذرات الست التى كانت تحتوى على حوالى خمسين كلمة، فتبين أن وثائق قران تتفق ثلاث عشرة مرة مع النسخة السبعينية ضد النسخة الماسورية، وتتفق أربع مرات مع الماسورية ضد النسخة السبعينية، هذا فضلاً عن الحالات التى اختلفت فيها مع النسختين معاً، فإذا كان هذا القدر من الاختلاف بين نسخ التوراة قد ظهر فى نص لا يزيد عدد كلماته عن الخمسين كلمة، فما هو عدد مرات الاختلاف بين النصوص الكاملة للتوراة فى نسخها المختلفة، وإلى أى مدى يمكن لأى إنسان عاقل أن يثق فى كتاب كهذا لا تكاد نسخة منه تتفق مع الأخرى فى أمر حتى تختلف معها فى أمور، وأى أمور هذه التى يقع فيها الاختلاف؟! إنها أمور العقيدة المنزلة من الله تعالى، والتى يستحيل تصور اختلافها من نسخة إلى نسخة أخرى مع وحدة المصدر وهو الله. مما يدل دلالة قاطعة على أن الكتاب المتداول الآن والمسمى بالتوراة ليس هو التوراة التى أنزلها الله على موسى عليه السلام، وإنما هو كتاب آخر من وضع الأحبار والتراجم والكهنة، وكل من سولت له نفسه أن يضيف إليه أو أن يحذف منه بعد أن استباحوا كلام الله.

إن ما كشفت عنه الدراسات التى أجريت على النسخ المختلفة للتوراة، وما أدى إليه الكشف عن وثائق الطائفة الآسينية فى كهوف قران، وبالذات نسخة التوراة القمرانية التى وفرت أرضاً أكثر رحابة وثباتاً لإجراء المزيد من المقارنات والتحليلات التى أثبتت—بما لا يدع مجالاً للشك—أن اليهود زوروا التوراة وغيروا فيها وبدلوا، كل هذا ليس إلا دليلاً جديداً على الإعجاز القرآنى، وكذب من ادعوا أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى كتب القرآن بيده، وادعى أنه أوحى إليه به، أو الذين قالوا إن بعض الكهنة النصارى أو غيرهم هم الذين علموا الرسول ﷺ القرآن، أو على الأقل ما تضمنه من أمور خاصة بعقائد اليهود والنصارى، أما من حيث الإعجاز فذلك لأن القرآن الكريم فضح ما قام به اليهود من تزوير للتوراة، وكيف أنهم كتبوها بأيديهم، وادعوا أنها من عند الله،

وفى ذلك الوقت لم يكن أحد قد عرف هذه الحقيقة، اللهم إلا عدد قليل من الضالعين مع اليهود من أتباع بولس الذين كثيراً ما وجدوا فيما قام به اليهود من أعمال تزوير ما يحقق مصالحهم، ويتفق مع أهوائهم، وأما من حيث الكذب فلأنه لو كان ما ادعوه من أن بعض كهنتهم هم الذين علموا الرسول ﷺ القرآن، أو بعض ما فيه، لو أن ذلك كان صحيحاً لجاء القرآن مثل التوراة، مشوهاً مليئاً بالأكاذيب، ومن باب أولى إذا كان من لقنوه للرسول هم أتباع بولس، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢٨).

بعض النتائج التى أسفرت عنها البحوث التى أجريت على وثائق قران:

تبين من الدراسة الهامة والقيمة التى أجراها العالم (جون آيجرو) لوثائق البحر الميت، كيف أن من كتبوا الأناجيل استعاروا واقتبسوا الكثير من مبادئ وأفكار وآراء ونظم الطائفة الآسينية، وادعوا أنها مبادئ وأفكار وآراء ونظم مسيحية أصيلة، بل كثيراً ما نسبوها إلى السيد المسيح نفسه. ولولا اكتشاف وثائق قران لظلت الحقيقة خافية على الناس لا يدرون عنها شيئاً.

وكان من أخطر ما كشفت عنه دراسة اللقائف ماورد فى نسخة التوراة القمرانية بشأن البشارة بالرسول محمد ﷺ، والذى تبين أن النسخة القمرانية تتفق فيه مع النسخة السامرية، ويأتى بعد ذلك ما كشفت عنه الدراسة من قيام الكنيسة المسيحية الأولى بالاقتباس والاستعارة من الطائفة الآسينية، والادعاء كذباً أنها أمور من إبداعها، وأخيراً فإن الدراسة التى أجراها (آيجرو) أسفرت عن نتيجة ثالثة بالغة الأهمية تتعلق بشخصية السيد المسيح التى يعتقد (آيجرو) أن بولس والآخرين قد بالغوا فى رسمها، وأضافوا عليها أوصافاً اقتبسوها من شخصية (المعلم) وهو زعيم الطائفة القمرانية أو الآسينية، وذلك من أجل أن

(٢٨) سورة البقرة، الآية ٧٩.

يجعلوا من دعوة المسيح عملاً هاماً وخطيراً، فى حين أنه فى الواقع لايزيد عن أن يكون مجرد دعوة إصلاحية محدودة الأهداف، تقتصر على جماعة من الناس هم اليهود أو الخراف الضالة، فإذا ببولس يحول الأمر إلى دعوة عالمية وألوهية وبنوة لله، وصلب وموت وقيامة وعشاء أخير وطقوس أخذها من هنا وهناك .

أولاً: تبشير توراة قران بالنبى محمد ﷺ

لاحظ (آيجرو) فى دراسته لتوراة قران ومقارنتها بما ورد فى بعض الأناجيل أن هناك تناقضاً بين ما اشتملت عليه هذه الأناجيل من ذكر النبى المنتظر الذى بشر به موسى، وبين ما انتهى إليه الرأى فى الكنيسة منذ أيام بولس من اعتبار السيد المسيح إلهاً وابن إله، وهذا يعنى أنه ليس النبى الذى بشر به موسى عليه السلام، والذى طال انتظار اليهود له كما سبق أن ذكرنا، وقد فسر آيجرو ذكر هذا النبى فى التوراة المعتمدة من الكنيسة، بأنه راجع إلى أن هذه النسخة اقتبست هذه النبوءة من التوراة السامرية التى ظهر أنها تتفق مع التوراة القمرانية التى عثر على نسختها فى مكتبة قران .

والملاحظ أن (آيجرو) وجه اهتمامه إلى ما أسماه تناقضاً بين تبشير موسى بالنبى الذى سيأتى ليقم لهم الرب، وبين اعتبار المسيح إلهاً وابن إله، أو بين قول موسى عليه السلام: إن هذا النبى لن يكون من بنى إسرائيل، وبين كون المسيح من بنى إسرائيل، ففى الحالة الأولى لا تنطبق النبوءة على المسيح لأنه ليس نبياً وإنما هو ابن الله، فن هو إذاً النبى الذى بشر به موسى؟ وفى الحالة الثانية تظل النبوءة معلقة لم تتحقق لأن المسيح من بنى إسرائيل وبالتالي لا يكون هو النبى الذى بشر به موسى. وأشار (آيجرو) إلى الحيرة التى عاش فيها زعماء الكنيسة الأولى الذين لم يدروا كيف يوفقون بين قيام دعوة المسيح على نبوءة موسى، وتبشير يحمى به باعتباره النبى الذى سيقود بنى إسرائيل إلى الخلاص فى حين أن موسى يقول إن هذا النبى لن يكون من بنى إسرائيل .

وإذا كان هؤلاء الزعماء قد وجدوا الحل فيما زعمه بولس من أن يسوع ليس نبياً وإنما هو ابن الله بل إنه إله، فإن حيرتهم لم تنته بل لأن نبوءة موسى ظلت بدون تفسير، وإذا كان قد بدا سهلاً الطعن فى التوراة السامرية بالنسبة لما ذكرته عن

النبى المنتظر، فإن الكشف عن التوراة القمرانية والعثور فيها على نفس النبوءة جعل الموقف أكثر تعقيداً، خاصة وأن هذا الكشف جاء بعد أن تحققت النبوءة بالفعل، وبعد أن مضى على تحققها أربعة عشر قرناً لم يحدث خلالها ما يفيد العكس، إذ أنه لم يسبق أن مضت مثل هذه المدة بين نبى وآخر مما يدل على أن ما قاله الرسول محمد بن عبدالله ﷺ من أنه آخر الأنبياء وخاتم المرسلين حق وصدق.

وقد سبق أن بينا كيف أن التوراة العبرية تعرضت للتزوير مرات كثيرة، وأنها فى ترجماتها المختلفة أصيبت بالتغيير والتعديل والحذف والإضافة من جانب المترجمين وغيرهم، مما جعلها غير جديرة بالثقة، ولا تستأهل التصديق، فى حين أن التوراة السامرية لم تعرض لشيء من هذا، وكذلك التوراة القمرانية وهذا ما اعترف به المتخصصون فى دراسة الكتب المقدسة الذين أولوها ثقتهم، واعتمدها كمصدر جدير بالاحترام، وفضلوها على ما يسمى بالنسخ القياسية من التوراة، واتخذوها أساساً للمقارنة، وفى هذا الصدد فإن التوراة السامرية تضمنت إضافة هامة إلى نبوءة موسى عليه السلام التى قال فيها: «يقيم الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون» (٢٩) أضافت قوله: «ولا يقوم أيضاً نبى فى إسرائيل كموسى» وهذا ما لم تذكره التوراة العبرانية مما يدل على أنه حذف مثلما حذف غيره من الأمور التى لم ترق لأخبار اليهود.

وقد وجد هذا النص كاملاً فى التوراة القمرانية، وقد قيل إن هذا معناه أن النبى المنتظر لن يكون من بنى إسرائيل كما كان موسى، وإنما سيكون من بنى إسماعيل (٣٠)، وقيل أيضاً إن ما قصده موسى ليس أنه لن يكون هناك نبى من بنى إسرائيل مطلقاً، ولكنه قصد أنه لن يكون هناك نبى مثله أى محارب كما كان اليهود يحملون. وهذا هو الصحيح حيث إنه جاء بعده أنبياء كثيرون من بنى إسرائيل آخرهم عيسى عليه السلام، ولكنهم لم يكونوا مثله، أى محاربين، وإنما الذى جاء مستوفياً لشروط النبوءة هو النبى محمد ﷺ فهو ليس من بنى إسرائيل، كما أنه كان محارباً قاد أمة إلى النصر على المشركين والكفار كما فعل

(٢٩) سفر التثنية، الإصحاح الثامن عشر.

(٣٠) الدكتور أحمد حجازى السقا، التوراة السامرية، صفحة ٢٥.

موسى كذلك ، فقد تأكدت النبوءة بما قاله عيسى بن مريم عليه السلام : « إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك الروح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ؛ لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آتية ، ذاك يمجدينى ؛ لأنه يأخذ مما لى ويخبركم (٣١) .

ثانياً : استعارة الكنيسة الأولى لنظم وآراء طائفة قران :

كذلك لاحظ (آيجرو) أن الكنيسة عرفت نفسها بأنها «هؤلاء الذين على الطريق أو أصحاب الطريق» أو «طريق الله» وهو ما جاء فى الإصحاح الرابع والعشرين من أعمال الرسل : «ولكننى أقر لك بهذا أثنى حسب الطريق الذى يقولون له شيعة ، هكذا أعبد إله آبائى مؤمناً بكل ما هو مكتوب فى الناموس والأنبياء» . وهذا المصطلح نفسه سبق أن استخدمته طائفة قران ، فهى كما جاء فى تعاليمها تضم «هؤلاء الذين اختاروا الطريق» . وأكثر من ذلك فإن الطائفة ومن بعدها الكنيسة وصفتا نفسها بالجماعة الفقيرة ، أو جماعة الفقراء ، وأبناء النور ، والفة المختارة من الله ، وجماعة العهد الجديد ، وفى الفصل الثامن من الرسالة الإنجيلية بالعبرية نجد أن الكنيسة قد اقتبست تماماً عبارة (جيريميا) Jeremiah فوصفت نفسها بأنها المعبد الجديد لله ، حيث يكون خلاص الناس جميعاً بالفداء أو بتضحية المسيح نفسه ، وبينما تصف جماعة قران نفسها بالزرع الأبدى وبيت إسرائيل المقدس ، والاجتماع السرى المقدس لأجل هارون ، وشهود الحقيقة يوم الحساب ، والمختارين بفضل الله للتفكير من أجل الأرض ، وليسددوا للشر ما يستحقه من عقاب ، والحائظ المبتلى أو الممتحن ، وحجر الزاوية الثمين ، والذين لن تهتز مؤسساتهم أو تزول من مكانها ، فإن وصف بطرس للكنيسة يشبه بشكل غير عادى هذه الأوصاف ، فهو يقول : «إنها الحجارة الحية التى أقيم بها بيت روحانى ؛ لتكون كهنوتاً إلهياً ، لكى تقدم التضحيات الروحية المقبولة من الرب بشفاعة يسوع» ولأنها ذكرت فى الكتاب المقدس فهى مدعوة لله ، أى أنه تبناها ' Behold ، وهى حجر الزاوية الرئيسى ، المختار من الله ، الثمين .. إن أتباعها هم الشعب المختار أو الجنس المختار Race ، وجماعة الكهنة الملكية (نسبة

(٣١) انجيل يوحنا ، الإصحاح ١٦ .

لهارون)، والأمة المقدسة، وشعب الله.

وكما كانت طائفة قران تحكم نفسها حكما ديمقراطياً بواسطة المجالس التي كانت تقوم بالمداولة، فإن الكنيسة استخدمت بدورها هذا المصطلح في العهد الجديد، حيث تصور المشاهد الواردة فيه كيف أن كل الأمور كانت تعرض على الشعب ليبدى رأيه فيها، ففي سفر الأعمال (٣٢). «سكت الجمهور كله، وكانوا يسمعون برنابا وبولس يحدثان بجميع ما وضع الله من الآيات والمعجائب في الأمم بواسطةهم». كذلك عندما ترك الحواريون للتلاميذ أن يحددوا السبعة الذين يقومون بالخدمة «في تلك الأيام إذ تكاثرت التلاميذ حدث تدمر من اليونانيين على العبرانيين أن أراملهم كن يغفل عنهن في الخدمة اليومية، فدعا الاثنا عشر جمهور التلاميذ وقالوا لا يرضى أن نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد، فانتخبوا أيها الإخوة سبعة رجال منكم شهدوا لهم وممولين من الروح القدس وحكمة فنقيمهم على هذه الحاجة، وأما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة الكلمة، فحسن هذا القول أمام كل الجمهور فاخترنا واستفانوس رجلاً مملوءاً من الإيمان والروح القدس وفيلبيس وبروخورس ونيكافور وديمون وبرميناس ونيقولاوس» (٣٣). وعند تشكيل مجلس كنيسة أنطاكية: «فهؤلاء لما أطلقوا جاءوا إلى أنطاكية وجمعوا الجمهور ودفعوا الرسالة» (٣٤). كذلك لوحظ أن هيئة مكتب الكنيسة وعلى رأسه الأسقف أو المطران له أصله في نظام المراقب Overseer عند طائفة قران.

ثالثاً: اقتباس الكنيسة لوظائف (المعلم) وإضافتها على المسيح:

كذلك اقتبست الكنيسة من طائفة قران ما كانت قد طبقتته من نظام يجمع في شخص (المعلم) بين السلطتين الدينية والزمنية أو العلمانية، أي سلطة الحكم، فإلى ما قبل سقوط الشيوقراطية القديمة لإسرائيل كانت السلطان الروحية والزمنية في يدى الكاهن الأكبر، وبزوال الاستقلال اختفى وصف المليك وبقي وصف الكاهن وحده، حيث آل الملك إلى الرومان الذين احتلوا فلسطين، وفي

(٣٢) الإصحاح الخامس عشر الفقرة رقم ١٢.

(٣٣) أعمال الرسل، الإصحاح السادس، الفقرة من ١ إلى ٥.

(٣٤) أعمال الرسل، الإصحاح الخامس عشر، الفقرة رقم ٣٠.

عهد الهسمونيين ، لما عاد الملك إلى اليهود ، انتحل الكاهن الأكبر وصف الملك وعد ذلك عملاً من أعمال اغتصاب العرش ، صدم الوريث الإسرائيلي في ذلك الوقت ، وعلى أى حال فإن فكرة ازدواجية الإدارة المسيحية استمرت على الأقل إلى زمن الثورة الثانية (٥ - ١٣٢ ميلادية) يدل على ذلك ما لوحظ على نقود ذلك الوقت من وجود اسم (العازار) الكاهن الأكبر جنباً إلى جنب مع اسم (سيمون باركوشيا) أمير إسرائيل . ولقد قضت طائفة قران على هذه المشكلة عندما جمعت في شخص المعلم بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية ، وهو ما اقتبسه أصحاب الأناجيل حيث جمعوا في شخص المسيح بين السلطتين ، فلما نشأت الكنيسة ادعت لنفسها هذا الحق واستندت إليه فيما بعد لفرض وصايتها على الملوك والحكام باسم المسيح .

ويقول (آليجرو) : إن بعض النتائج التي أسفرت عنها دراسة اللغائف التي خلفتها طائفة قران أزعجت المسيحيين ؛ لأنها كشفت عما في المسيحية من تناقض ناشئ لاعتن الاختلاف الشديد بين شخصيتي معلم الطائفة التي كانت تقيم في قران ، وبين المسيح وحسب ، بل عن الاختلاف الأهم بين عالمين من الفكر جد متباينين ، فمن ناحية كان المعلم قائداً كهنوتياً لطائفة يهودية متطرفة نرى صورته من خلال عيون أتباعه ، ومن ناحية أخرى كان يسوع حاخاماً أو حبراً يهودياً تغيرت صورته بواسطة الكتابات اليونانية للكنيسة غير اليهودية ، التي أصبحت لها السيطرة ، لكي تجعل منه ومن رسالته شيئاً يمكن قبوله من جانب عالم غير اليهود Gentile World الذي أصبح يمثل كتلة المسيحية الرئيسية .

ويستطرد قائلاً : « والحقيقة أننا نعرف قليلاً جداً عن الرجل المسمى يسوع ، وعن خلفيته التاريخية والكلام المنسوب إليه في العهد الجديد ، يظهر في ترجمته خارج السياق غالباً ، وضمنياً بشكل كامل وغير مباشر ، وخاص بعالم مفقود للطائفية اليهودية ، ولا نزال إلى الآن نلقى صعوبة في التعرف عليه ؛ ولذلك فإن القراء يمكنهم أن يدركوا ، أنه بالنسبة لما نحن عليه حالياً من جهل ، ليس من السهل أن نحدد مكان « يسوع » في العالم اليهودي الذي كان قائماً في أيامه ، ومدى العناية الذي سيصيننا إذا أردنا أن نلقى الضوء على خلفيته الدينية . ويمكن أن نفترض بالتأكيد ، أنه كان ملماً بمذهب الطائفة الآسينية ، منذ أن انتشرت في

فلسطين، وكما رأينا، فإن بعض اللفائف ظهر أنها تتطابق مع الآسينية الحضرية (التي كانت تنتشر في الحضرة) أكثر مما تتطابق مع الحياة القائمة على الزهد في قران، ومهما يكن فإنه لا يمكن التفاوضي عما كان قائماً من اختلافات بين هذين الفرعين للحركة (الآسينية والقمرانية) وأن نأخذها بعين الاعتبار.

والراجع أن «يسوع» كان قد اطلع بشكل جيد على نظام وفكر الآسنيين في المدن والقرى، أكثر من اطلاعه على نظام وفكر طائفة قران، ومع ذلك فإننا مازلنا نحتاج إلى معرفة كم أكبر من المعلومات عن الآسينية الحضرية قبل أن نؤكد على الدرجة من القوة التي كانت عليها العلاقات التي ربطت «يسوع» بهذه الشيعة؛ وبقدر ما نالت التفاصيل الواردة في العهد الجديد والتي تسجل حياة «يسوع» من اهتمام، فإن اللفائف تقدم مصدراً إضافياً للاعتقاد بأن أحداثاً كثيرة نسبت إلى «يسوع» لم تزد في الأصل عن أن تكون مجرد تصور لما كان متوقفاً أن يكون عليه المسيح، وأنها لم تقع فعلاً، وبالتالي فإنها ليست جزءاً من تاريخ «يسوع» (٣٥).

إن الإنجاز الرئيسي الذي قدمته لفائف البحر الميت للفكر الحديث، هو أنها نبهتنا إلى مدى الجهل الذي كنا نعيش فيه بشأن الأحداث والآراء الخاصة بالطائفة اليهودية في بداية التاريخ الميلادي، ولا شك أن الضوء الذي ألقته على تلك الفترة الصليبية في تاريخ الإنسان، أدى إلى امتداد بعض الضوء إلى فترة أخرى كان الظلام فيها يكاد أن يكون شاملاً، فهي على الأقل قد بددت عدداً من الافتراضات الزائفة، وفتحت الطريق أمام أفكار جديدة، أو ربما لإصلاح الأفكار المتسرة التي طالما تفاضينا عنها لأنها لا تلائم تصوراتنا.

وفيما يتعلق بنهاية الطائفة الآسينية أو القمرانية، فإن دائرة المعارف الأمريكية تقول: إنهم اختلفوا من التاريخ اليهودي، وربما يكونون قد ذابوا في جماعة يهودية أخرى، من بينها اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، وهذا هو الأرجح، فهناك شبه إجماع بين المؤرخين على أن هناك طائفة تسمى طائفة الفقراء أو «الأبيونيين» ظهرت في نفس الفترة التي اختفت فيها طائفة الآسنيين، ويبدو أنها البقية الباقية منهم،

فقد سبق أن رأينا أن طائفة قران أو الآسينيين كانوا يصفون أنفسهم بأنهم الفقراء، وسوف نتكلم عن هذه الطائفة بعد أن نتكلم عن الطائفة الرابعة التي كان لها دور واضح فى الحياة الفكرية اليهودية، سواء قبل مجيء المسيح عيسى بن مريم، أو بعد مجيئه وهى الطائفة المسماة بالنصارى.

طائفة النصارى أو النذرين:

تسمى هذه الطائفة فى التاريخ اليهودى، وكذلك المسيحى، بطائفة النصارى Nazarenes أو الناصريين التى يقوم الخلاف بين المؤرخين وعلماء الأديان والمفكرين حول ما إذا كانت قد وجدت قبل المسيح، أم أنها لم توجد إلا بعد ظهوره، ليس ذلك وحسب، بل إن الخلاف امتد إلى الاسم الصحيح لهذه الطائفة، أهو (الناصريون) أم (النصارى) أم (النذريون). فهناك رأى يذهب إلى أن الناصريين هم النصارى، وهو رأى «ديورانت» (٣٦) الذى يذهب أيضاً إلى أنهم كانوا موجودين فى الأيام التى ولد فيها المسيح، وأنهم كانوا يسمون (ناصرين) نسبة إلى الناصرة التى يقال إن المسيح ولد فيها، فى حين يرى (جيبون) أن النصارى هم اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، أو كما وصفهم (المرتدون إلى المسيحية) وقد سموا فيما بعد (النصارى) نسبة إلى مدينة الناصرة، فهم بناء على هذا الرأى لم يكن لهم وجود قبل المسيح.

أما العقاد (٣٧) فإنه يرى أن النصارى أو الناصريين لم يكن لهم وجود قبل المسيح، بعكس طائفة النذريين التى يذهب إلى أنها كانت موجودة قبل ميلاد المسيح، فى حين أن النصارى لم يظهروا إلا بعد ميلاد المسيح وإظهار دعوته، ويقول عن طائفة النذريين: إنه كان لها عمل محسوس فى موطن السيد المسيح قبل ميلاده، فقد وهبوا أنفسهم أو وهبهم أهلوهـم لحياة القداسة، وخدمة الله والتبشير باليوم الموعود، يوم الخلاص من الظلم والجور والتطهر من الذنوب.

ولم يكن هؤلاء النذريون طائفة تجمعها الوحدة التى تجمع بين أصحاب النحل والمراسم الاجتماعية، ولكنهم كانوا أحاداً متفرقين ينذر كل منهم نفسه أو ينذر

(٣٦) ول ديورانت، المرجع السابق، صفحة ٢١٥.

(٣٧) العقاد المرجع السابق، صفحة ٤٩.

أهله على حدة، ولا ينتسبون إلى جماعة واحدة غير جماعة الأمة بأسرها.

والكلمة باللغة العربية ترجع إلى مادة تفيد معنى التجنيد، واستعيرت على ما يظهر للجهد في سبيل الله، يقال نذر الجيش الرجل جعله نذيرة أى طليعة، وربما كان من عمله أن ينذر قومه بالعدو ويعددهم عن المخاطر والمفاجآت، ولا شك أن المادة تدور حول هذا المعنى في العبرية مع اختلاف الحروف والأوزان.

ولا يشترط في النذرى أو المنذور أن يهجر العالم ويعتزل الناس في الصوامع، ولكنه يراض على حياة التنطس، فلا يجوز له أن يشرب الخمر، ولا أن يندس جسده بلامسة الموتى أو الأجسام المحرمة، وعليه أن يرسل شعره ولا يخلقه قبل وفاء نذره إن كان منذوراً لأجل مسمى، وقد ينذر الطفل قبل مولده ويمتد نذره طول حياته، ويقال عن المنذور إنه بمثابة النبی في سن الفتوة، قال النبی (عاموس) بلسان (يهوه) إله بنى إسرائيل: «وأقت من بينكم أنبياء ومن فيتاتكم نذيرين.. لكنكم سقيتم النذيرين خراً وأوصيتم الأنبياء أن يدعوا النبوة». والنبوة هنا بمعنى الإنذار بما سيكون.

ويقول الأستاذ العقاد عنهم: «والمهم في أمر النذيرين بالنسبة للسيد المسيح أن النبی يحيى المقتل (يوحنا المعمدان) كان علماً من أعلامهم المعدودين، وكان السيد المسيح يعتمد على يديه أو يأخذ العهد عليه، وأن بعض المؤرخين يحسب أن السيد المسيح من النذيرين، ويلتبس عليه الأمر بين النذرى والناصرى، وهما في اللفظ العبرى متقاربان، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم أنه لم يكن من الناصرة، بل يزعم أن الناصرة لم يكن لها وجود؛ لأنها لم تذكر قط في كتب العهد القديم، ولكن الأرجح أن الناصرة التي كانت تسمى «نذيرة» بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الأرض التي فتحها العبريون قديماً، وأنها كانت مرقباً صالحاً للاستطلاع؛ لأن التلوى التي تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج بنى عامر، وبهذا تزول الصعوبة التي اعترضت المفسرين الغربيين على الخصوص، ولا سيما الناظرين في اللغة اليونانية، لغة الأناجيل، فلا عجب أن يضلوا مع التصحيف اللسانى فلا يفرقوا بين النسبة إلى المنذروين والنسبة إلى النذيرة، وبخاصة إذا كان اسم البلدة قد عرض له

التصنيف على السنة العبريين والغرباء على طول الزمن ، فنطقوه تارة بالصاد وتارة بالسين» (٣٨) .

ويستطرد الأستاذ العقاد قائلاً (٣٩) : « وليس النذريون طائفة موحدة كما أسلفنا ، ولكنهم ينتمون إلى كل مذهب يوافق حمية الشباب ، وهذا الذى جعلهم قوة ذات بال فى عصر الميلاد خاصة ؛ لأنهم جميعاً فتيان معمورة قلوبهم بالأمل ، معقودة نياتهم على الإصلاح ، يؤمنون بأنهم رواد الدعوة إلى المسيح الموعود ، ويترقبون ظهوره للترحيب به والإصغاء إليه ، ولا تحيط بهم طائفة معينة أو مذهب محدود » .

ويقول عنهم « ديورانت » أن المنتمين إلى شيعة الناصرة كانوا يعيشون فى بيرية فى الناحية الأخرى من نهر الأردن ، وكانوا يرفضون التعبد فى الهيكل ، ويأبون التقيد بالناموس ، ولكن الذى أثار حماسهم الدينى هو عظات « يوحنا بن الصابات قرية مريم » يقصد النبى يحيى .

وبطبيعة الحال فإن أول من آمن بدعوة المسيح كانوا من طائفتى الآسينيين والنذيريين أو « الناصريين » وهم جميعاً من اليهود الذين نظروا إلى السيد المسيح ، لا باعتباره قد جاء بدين جديد ، أو بما يناقض الشريعة الموسوية ، ولكنهم نظروا إلى ما جاء به باعتباره تصحيحاً للديانة اليهودية التى أفسدها الأحبار ، وهذه فى الحقيقة هى النظرة الصحيحة إلى ما جاء به عيسى بن مريم ، وما كان هو نفسه حربصاً على تأكيده فى عظاته المختلفة « أنه لم يأت لينقض الناموس بل ليكمله » ولذلك فإن المسيحيين اليهود ظلوا حربصين على الالتزام بما جاء فى شريعة موسى من طقوس ، مثل الختان ، الذى كانوا يصرون على إلزام كل من يعتنق المسيحية بإجرائه ، حتى ولو لم يكن من أصل يهودى .

ليس ذلك وحسب ، بل إنهم (أى اليهود) كانوا يستنكرون فى أول الأمر توجيه الدعوة إلى المسيحية إلى الأميين ، ويقصدون بهم غير اليهود ، فهم كانوا يعتبرون المسيحية دعوة خاصة بهم وحدهم ، وكانوا يهاجون الرسل ، أى الحواريين ،

(٣٨) العقاد المرجع السابق ، صفحة ٥٠ .

(٣٩) المرجع السابق ، صفحة ٥١ .

ويصرون على منعهم من هداية غير اليهود، من ذلك أنه جاءت من أورشليم إلى أنطاكية طائفة أخرى من المسيحيين اليهود المستمسكين بدينهم، ورأت بطرس يأكل مع الكفرة، وأقنعته بأن ينفصل هو واليهود الذين اعتنقوا المسيحية عن المهتدين غير المحتتين (٤٠).

وقد ظل المسيح زمناً طويلاً لا يرى فى نفسه إلا أنه أحد اليهود، يؤمن بأفكار الأنبياء، ويواصل عملهم، ويجرى على سنتهم، فلا يخطب إلا فى اليهود، ولما أرسل أتباعه لينشروا إنجيله لم يرسلهم إلا لمدن اليهود، فهو يقول: «إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة السامريين لا تدخلوا» ومن ثم كان تردد الرسل بعد (موته) فى أن يحملوا «الأنبياء الطيبة» إلى عالم «الكفرة» ولما التقى المسيح بالسامرية عند البئر قال لها: «إن الخلاص لهو من اليهود». ولما طلبت إليه امرأة كنعانية أن يشفى ابنتها أبى فى أول الأمر وقال: «لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة». وقال للأبرص الذى شفاه من علته: «وأذهب بنى وأرئفسك للكاهن وقدم القربان الذى أمر به موسى». كذلك قال: «على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه لكن حسب أعمالهم لا تعملوا». ولما عرض يسوع أن تعدل الشريعة اليهودية، سار على سنة هليل فلم يفكر فى أنه ينتقض هذه الشريعة وقال: «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل» وقال أيضاً: «ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس» (٤١).

أما الطائفتان الأخريان: الصدوقيون والفريسيون فقد ناصبتاه العداة؛ لأنه كان يقصد رؤساءهما وأجبارهما وكتبها بعظاته، مما أغضبهم ودفعم إلى استعداء الحكام الرومان عليه بدعوى أنه يؤلب الناس ويحرضهم على الثورة والترد، ويزعم أنه ملك اليهود.

ويقول شارل جينيير (٤٢): «إنه لم يستجب لدعوة عيسى إلا بضع مئات من

(٤٠) قصة الحضارة، جـ ٣، المجلد الثالث صفحة ٢٥٥.

(٤١) المرجع السابق صفحة ٢٣٠.

(٤٢) شارل جينيير: المسيحية نشأتها وتطورها، صفحة ٢٣٠.

أهل الجليل السذج، فالأناجيل عندما تصف لنا جماهير الشعب وهى تقتفى خطاه فى تلهف وتنصت إلى أحاديثه فى إعجاب بالغ، هذه الأناجيل تنسينا ما ترسمه صفحاتها الأخرى — فى صورة لاشك أنها أقرب إلى الحقيقة — من قسوة قلوب اليهود وتعنتهم الشديد، والواقع أن عيسى نفسه يش فى يبدو، من محاولة إقناعهم، وأسباب فشله واضحة للعيان، فهو لم يتحدث إلى الشعب باللغة التى كان ينتظرها منه، كان يدعو إلى التأمل فى النفس وحب الخير، وإلى التواضع والإيمان العميق بالله، فى حين كان الناس يتربقون دعوة إلى الصراع المسلح، وإعلاناً للجهاد الأكبر والأخير قبل الانتصار الخالد، إنه لم يقل لهم: قوموا.. فالمسيح الذى اختاره يهوه معكم» بل قال: مهدوا بالتوبة ليوم الحساب القريب» لم يطلب منهم العمل والكفاح، بل رجاهم الصبر، واتخاذ موقف أخلاقى ودينى، من شأنه أن يحول هذا الصبر إلى نوع من الفروض الحتمية، فيه مافيه من القسوة على النفس. كان من بنى إسرائيل ولكنه لم يتعصب لقومه.

ومما لاشك فيه أن موقف الصدوقين والفريسيين من السيد المسيح كان له أكبر الأثر فى تردد الطوائف الأخرى فى الانضمام إليه، والإيمان بدعوته، لذلك لم يزد عدد طائفة (النصارى) فى الفترة التى تلت رفع السيد المسيح على ١٢٠ فرداً، كان معظمهم من شيعة الآسينيين. ولذلك لم يجد رؤساء اليهود ما يدعوهم إلى الاعتراض على قيام هذه الشيعة لصغرهما، وانتهاء الأذى من وجودها، إلا أن عدد النصارى لم يلبث أن تضاعف فى سنين قلائل، فقفز إلى ثمانية آلاف شخص، مما جعل الرعب يستولى على قلوب الكهنة اليهود، الذين بادروا إلى القبض على بطرس أحد حوارى المسيح وغيره من الحواريين، وعلى أثر ذلك بدأ اليهود اضطهاد إخوانهم الذين اعتنقوا المسيحية، فحاكموا بعضهم وزجوا بهم فى غياهب السجون^(٤٣). فلجأ عدد من اليهود المهتدين ذوى الأسماء والثقافة اليونانية الذين تزعمهم اصطفانوس إلى السامرة وأنطاكية، وأنشئوا فيها جماعات مسيحية قوية امتزجت لديها العقيدة بالأفكار الوثنية اليونانية، التى تضمنتها الثقافة التى تشربوها.

(٤٣) المرجع السابق صفحة ٤٤.

أما معظم الرسل (الحواريون) فيبدو أنهم سلموا من الاضطهاد؛ لأنهم ظلوا يراعون التاموس، فقد بقوا في أورشليم مع المسيحيين اليهوديين الذين آلت رئاستهم إلى يعقوب (العادل) المسمى «أخو الرب». وقد قل عدد الجماعة المؤمنة المقيمة في أورشليم، ونقصت مواردها، وكان يعقوب يبشر بالتاموس بكل ما فيه من صرامة، ولم يكن يقل عن الآسنيين تقشفاً وزهداً، فلم يكن يأكل اللحم أو يشرب الخمر، ولم يكن له إلا ثوب واحد، وظل المسيحيون تحت قيادته سبعة أعوام لا يمسهم أذى، ثم حدث حوالي عام ٤١ أن قتل المدعو يعقوب بن زبيدي فقبض على بطرس ولكنه فر، ثم قتل يعقوب العادل في عام ٦٢، وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت ثار اليهود على روما، وأيقن المسيحيون المقيمون في أورشليم أن «نهاية العالم» قد دنت، فلم يأهبوا بالشؤون السياسية، وخرجوا من المدينة، وأقاموا في بلاد الوثنية الضالعة مع روما والقائمة على الضفة البعيدة من نهر الأردن (مملكة الأنباط) وافترقت اليهودية والمسيحية من تلك الساعة، فاتهم اليهود المسيحيين بالخيانة وخور العزيمة، ورحب المسيحيون بتدمير الهيكل على يد تيطس تحقيقاً لنبوؤة المسيح (٤٤).

ولم يكن اليهود الذين اعترفوا بالمسيح يعتبرونه ابناً لله أو غير ذلك، مما أقحمه بولس وغيره على المسيحية فيما بعد، وإنما كانوا يعتبرونه نبياً رسولاً من البشر، بعث ليظهر الأرض، ويقيم ملكوت الله، ويعيد الإيمان إلى الناس بعقيدة البعث بالأجسام، وهو ما يخالف عقيدة الصدوقيين من جهة، ويهدد نفوذ وسلطان الفريسيين من جهة أخرى، ويحرمهم من المكانة التي يتمتعون بها.

وكما قلنا فإن المسيح لم يقل قط إنه إله أو ابن إله، بل كان يقول: «لماذا تدعونى صالحاً، ليس أحد صالحاً إلا واحد هو الله» وقال وهو يصلى في جتسماني: «ليكن لا ما أريد أنا بل ما تريد أنت» أي الله.

أما بالنسبة لعامة اليهود فإنهم أصيبوا بخيبة أمل كبيرة في المسيح الذي كانوا يعتقدون — لكثرة ما سمعوه من أخبارهم — أنه سيجيء قوياً محارباً يقودهم في ثورة شاملة أو حرب ناجحة ضد مضطهديهم، ولذلك كانت خيبتهم عظيمة عندما

(٤٤) ديورانت، المرجع السابق صفحة ٢٤٤ — ٢٤٥.

سمعوا عظامه التي يدعوهم فيها إلى التسامح مع أعدائهم، بل ويوجه النقد إلى اليهود أنفسهم وإلى أحبارهم، محملاً إياهم المسؤولية عما لحق بالشرعية من تحريف؛ ولذلك فإن ما قاله وجد صدقاً طيباً لدى كل من الآسنيين والنصارى الذين طالما عابوا على الأحبار فسادهم وانحلالهم، وسوء استغلالهم للناموس. وكانت بهجتهم عظيمة وسرورهم لا حد له، لتدمير الرومان للهيكل، واعتبروا ذلك تحقيقاً لما تنبأ به المسيح.

وقد وجه اليهود الذين ناصبوا المسيح العداء كراهيتهم إلى أبناء ملتهم الذين آمنوا به بشراً رسولاً، فاضطهدوهم ونكلوا بهم وطاردوهم، ففر هؤلاء إلى الأقاليم المجاورة، فاتجه بعضهم إلى اليونان وسوريا، واتجه البعض الآخر إلى الجانب الآخر من نهر الأردن حيث تقوم دولة الأنباط.

وتحقت بذلك نبوءة المسيح الذي كان واحداً من تلاميذه قد سأله فيما هو خارج من الهيكل: يا معلم، ماهذه الحجارة وهذه الأبنية؟ فأجاب يسوع وقال له: انتظر هذه الأبنية العظيمة، لا يترك حجر على حجر لا ينقض (٤٥). كذلك قال: فإذا سمعتم مجروب وبأخبار حروب فلا ترتاعوا؛ لأنها لا بد أن تكون، ولكن ليس المنتهى بعد؛ لأنه تقوم أمة على أمة، ومملكة على مملكة، وتكون زلازل وتكون مجاعات واضطرابات، هذه مبتدأ الأوجاع (٤٦). وسيسلم الأخ أخاه إلى الموت والأب ولده، ويقوم الأولاد على والديهم ويقتلونهم، وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمي، ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص. ففتى نظرتهم دجاسة الخراب التي قال عنها دانيال النبي قائمة حيث لا ينبغي ليفهم القارئ، فحينئذ ليهرب الذين في اليهودية إلى الجبال، والذي على السطح فلا ينزل إلى البيت، ولا يدخل ليأخذ من بيته شيئاً، والذي في الحقل فلا يرجع إلى الورا ليأخذ ثوبه، وويل للحبالي والمرضعات في تلك الأيام (٤٧).

واستجابة لما أمر به المسيح من الهرب إلى الجبال فر الآسنيون وغيرهم ممن

(٤٥) إنجيل مرقس، الأصحاح الثالث عشر، الفقرتان ٢٠١ و٢٠٢.

(٤٦) المرجع السابق، الفقرتان ٧ و٨.

(٤٧) المرجع السابق، الفقرات من ١٢ إلى ١٦.

آمنوا به بشراً رسولاً، وتعرضوا للاضطهاد والقتل والمطاردة «والبغض من الجميع من أجل اسم المسيح» إلى الصحراء في شرق الأردن، حيث الكهوف التي كانوا قد اعتادوا اللجوء إليها، والتي كانت عصابات المتمردين على الحكم الروماني تنسحب إليها بعد أن تنتهي من شن غاراتها، ثم لم يلبث قسم من الكنيسة اليهودية - المسيحية Judeo - Christian أن اتخذ لنفسه مركزاً في هذه المنطقة (٤٨).

وأخذت المسيحية اليهودية من ذلك الوقت يقل عدد أتباعها وتضعف قوتها، وترك الدين الجديد للعقلية اليونانية تشكله وتصبغه بصبغتها، وقد أطلق على الفئة القليلة التي تمسكت بالعقيدة الصحيحة القائمة على فكرة أن المسيح بشر وليس إلهاً أو ابن الله اسم الطائفة الأبيونية (٤٩) Ebionistes . ويقول (جيبون): إن أبيونية معناها (الفقراء) الذين وصفوا بأنهم كانوا يجمعون بين التقشف المسيحي والتاموس اليهودي الكامل .

ويقول (جيبون) إن طائفة (الابنيم) أو الفقراء انسحبت إلى مدينة (بللا) Pella في الشرق من نهر الأردن . أما (ديورانت) فيقول إنهم انسحبوا إلى مدينة (بيرا) Perea وكلا المؤرخين يقول: إنها تقع في شرق الأردن، إلا أن (بللا) التي ذكرها (جيبون) كانت تعد من المدن العشر أو (الديكابولس) التي أنشأها الإغريق في صحراء الشام، ومنها بيت - شان وديون، وجرش وفيلادلفيا (عمان الآن) وغيرها .

وقد ورد في إنجيل متى (٥٠) أن بعض سكان المدن العشر تبعت المسيح في عهد رسالته الأولى (٥١) . ويقول متى أيضاً وهو يتكلم عن المسيح «فتبعتة جموع كثيرة من الجليل والعشر المدن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن» . وكانت

(٤٨) Allegro, op. cit, p. 169.

(٤٩) يبدو مما قاله (جيبون) عن هذه الطائفة إنها لا تنتسب إلى أبيون (الذي كان يقول إن المسيح بشر ولدته السيدة العذراء بعد زواجها من يوسف النجار، ولكنه، أي المسيح أحرز الفضائل فاتخذته الله أبناً له . وقد اختلف بعض أتباع (أبيون) معه فقالوا إن مريم حبلت ببعسى بفعل روح القدس، لكنهم أنكروا مساواته للأب في الجوهر . وكان أتباع أبيون ويسمون (الأبيونيين) لا يعترفون إلا بإنجيل متى مع إسقاط بعض فصول منه وتعديل آيات كثيرة أخرى .

(٥٠) الأصحاح الرابع، الفقرة رقم ٢٥ .

(٥١) فيليب حتى، تاريخ سورية، الجزء الأول، صفحة ٣٥١ .

(بللا) من المدن العشر هذه، وكانت تقع فى شرق الأردن، وتقابل بيسان التى تقع غربى النهر.

أما المدينة التى ذكرها (ديورانت) واسمها (بيرا) فإنها تبعد عن المدينة الأولى بمسافة كبيرة، وتقع فى الجنوب، وكانت مركزاً نبطياً مشهوراً تاريخياً وتسمى فى العربية (بطرا). وكانت حاضرة دولة الأنباط.

وعلى الرغم من بعد المسافة بين المدينتين (بللا) التى ذكرها جيون و(بيرا) التى ذكرها (ديورانت) فإنه ليس من المستبعد أن تكون الطائفة الهاربة بدينها من اضطهاد اليهود والمسيحيين، قد انتشرت فى المنطقة الممتدة بطول نهر الأردن من ناحية الشرق، حيث تلائمها طبيعة التضاريس فيها، فهى تتكون من جبال ووديان، وتوجد بها كهوف بطول المنطقة.

والمعروف أن البرية، وهى المنطقة الممتدة بطول الضفة الشرقية لنهر الأردن، كانت فى مختلف العصور ملاذاً للهاربين من الاضطهاد، وبخاصة اليهود الذين كانوا يستجيبون بذلك لدعوة النبى (أشعيا) الذى كان يقول: «فى البرية هبثوا صراط الرب» وهو ما أوصاهم به السيد المسيح بعد ذلك كما ذكرنا، وفضلاً عما تتيحه لهم الكهوف المنتشرة فى البرية من مأوى آمن، فإن الصحراء كانت دائماً أنسب مكان للتأمل فى ملكوت الله، واعتزال الناس والتفرغ للعبادة.

وسوف نلاحظ عند تحليلنا وتفسيرنا لقصة فتية الكهف كما وردت فى القرآن الكريم، أن عاداتهم ونظامهم وسلوكهم تماثل تماماً عادات وتقاليد ونظم وسلوك الآسنيين والقمرائين، ثم تلك الشيعة الصغيرة التى تفرعت عنها، والتى تعتبر بقية الباقية بعد أن استهدفتا لعدوان اليهود والمسيحيين معاً، وهى شيعة الفقراء أو زهاد، أو كما أطلق عليها الحزبان: حزب اليهود وحزب المسيحيين (الأبيونيين). وقد اضطدهم اليهود لأنهم كانوا يرفضون ما فعله الأحبار من تزوير للتوراة، والتمسك بالشكليات، وإهمال الجوهر والاتجار بالعقيدة، والكذب والرياء، والقسوة والأنانية، والجشع وحب المال، واقتراف كل أشكال الرذائل والموبقات، وأخيراً إيمانهم بالسيد المسيح النبى الذى بشر به موسى عليه السلام، باعتباره ليس مثل موسى، ولكنه من بنى إسرائيل، وهو ما يخالف كل ما حاولوا أن يقنعوا اليهود به

من أن النبي الذي بشر به موسى سوف يكون مثله محارباً يقودهم ضد أعدائهم ، ويلحق الهزيمة بهم ، ويعيد مجد إسرائيل ، ومما زاد الطين بلة ما أظهره الآسنيون والنصارى من سرور بتدمير الهيكل ، وإذا كان (هادريان) قد صب جام غضبه على اليهود جميعاً بدون أن يميز بين من ظل منهم على عقيدته ، ومن آمن بالمسيح البشر الرسول ، فحرم الجميع من الاقتراب من جبل صهيون ، حيث تقوم الكنيسة والمعبد ، فإن اليهود الذين لم يؤمنوا بالمسيح ولم يعترفوا به نبياً رسولاً ، ظلوا يتحينون الفرص للانتقام من إخوانهم الذين آمنوا به وبدعوته ، حتى إذا لاحت لهم الفرصة لم يدعوها تقلت منهم ، وانقضوا عليهم فأعملوا فيهم سيوفهم ذبحاً وتقتيلاً ، ومن تمكن منهم من الإفلات من المذبحة لم يلبث أن وقع فى أيدي هؤلاء الذين انخرقوا برسالة المسيح عن طريقها الصحيح ، فزعموا أنه ابن الله .

ف عندما انتهت فترة الاضطهاد واستعاد جبل صهيون اسم كنيسة أورشليم وأجنادها ، ألقى المسيحيون تبعه ما حدث على «الناصرين» أى اليهود المسيحيين ، ونسبوا إليهم جرائم الانشقاق والضلال ، خاصة وأنهم قد رفضوا التخلي عن عقيدتهم فى المسيح الرسول ، وعندما اضطلع المدعو ماركوس بوظيفة أسقف أورشليم ، وسعى إلى التصالح مع الرومانيين ومع الكنيسة الكاثوليكية على حساب عقيدة الناصريين ، فما كان من هؤلاء إلا أن رفضوا أن يوافقوه وظلوا يحتفظون بمدينة (بللا) Pella موطنهم السابق ، وانتشروا فى القرى المجاورة لدمشق وأنشؤا لهم كنيسة فى مدينة حلب .

ويقول جييون : «واعتبر اسم النصارى أو الناصريين أسمى وأشرف من أن يطلق على هذه الشردمة من اليهود المسيحيين ، وسرعان ما أضفى عليهم ما افترض فيهم من ضيق الأثق وضآلة الإدراك بالإضافة إلى حالتهم — الاسم المزرى «الأبيونيين» (٥٢) .

ويقول عنهم أيضاً : «أما الأبيونيين التعمساء الذين لفظتهم ديانة لأنهم مارقون (يقصد اليهودية) ولفظتهم الأخرى لأنهم هراطقة (يقصد المسيحية) فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى تحديد موقفهم بشكل أدق ، وربما وجدت حتى القرن الرابع بقية لهذه الطائفة البالية ، إلا أنها ذابت بطريقة غير ملحوظة فى الكنيسة المسيحية ، (٥٢) اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ، الجزء الأول ، صفحة ٣٣٢ .

أو فى الهيكل اليهودى» (٥٣).

وقد ردد الأستاذ عباس العقاد هذا الكلام قائلاً: «ثم ذهبت هذه الطائفة فى الغمار فلا هى إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ اليهود، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ المسيحين (٥٤) وإذا كان جييون قد قال إن طائفة الأبيونيين أو الفقراء ربما وجدت حتى القرن الرابع الميلادى، فإن (ول ديورانت) يقول: إنها ظلت قائمة مدى خمسة قرون على الرغم من أن الكنيسة المسيحية التى قامت على عقيدة تأليه المسيح واعتباره ابناً لله كانت قد حكمت على هذه الطائفة فى نهاية القرن الثانى بالكفر، وأخرجتهم من حظيرتها (٥٥).

والسبب فى لجوء شيعة الأبيونيين إلى بيرا Perea أو بللا Pella فى قول آخر يرجع إلى أن طائفة الناصريين التى تفرعت عنها هذه الشيعة كانت قد انتقلت من الناصرة إلى بيرا فى القرن السابق على ميلاد المسيح بسبب اضطهاد عامة اليهود لها، بعد رفضها التعبد فى الهيكل والتقيد بالناموس، وكان اليهود قد ضموا هذه المدينة إلى مملكتهم عام ٧٨ قبل الميلاد فى نفس الوقت الذى ضموا فيه إلى هذه المملكة السامرة، وراعوم، وموآب والجليل وأدوميا، وما وراء النهر أو ما يعرف الآن بشرق الأردن (٥٦).

العلاقة بين الأبيونيين وطائفتى الآسينيين والنصارى:

ولعلنا بعد هذا العرض لما كتبه المؤرخون والمفكرون عن الطوائف اليهودية، نلاحظ أن بعض المؤرخين- وإن كانوا قد استطاعوا أن يميزوا بين الآسينيين والنصارى- لم ينجحوا فى محاولاتهم تحديد علاقة طائفة الأبيونيين بطائفتى الآسينيين والنصارى وعن أيهما تفرعت، فمنهم من يذهب إلى القول بأنها تفرعت عن طائفة النصارى كما قال (جييون)، ومنهم من يرى أنها تفرعت عن طائفة الآسينيين أو الآسين، كما قال (ديورانت). وهو ما رددده الأستاذ يوسف

(٥٣) المرجع السابق، صفحة ٣٣٣.

(٥٤) حياة المسيح، صفحة ١٤٤.

(٥٥) قصة الحضارة، المرجع السابق، صفحة ٢٤٨.

(٥٦) المرجع السابق، صفحة ١٦٦.

الحداد^(٥٧) فهو يقول: «وكانوا يعتبرون أنفسهم «أهل الصراط المستقيم» الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، والفرقة الناجية من بنى إسرائيل، وأهل (العهد الجديد) الموعود، وكانوا يسمون أنفسهم (قديسى الله) و(الأبيونيين) أى المساكين، وأبناء النور وأهل الرضا، وغرسه الله فى أرضه، وهيكلكم الله الحى».

ويقول أيضاً: «يؤيد ذلك هداية جماعة قران إلى «النصرانية» الإسرائيلية، بعد الحرب السبعينية لما رأوا فى خراب أورشليم والهيكلكم تتميم نبوءة المسيح، فحملوا إليها صفة (الأبيونية) التى كانوا يتصفون بها. وصارت (النصرانية) تتصف (بالأبيونية)»^(٥٨).

أما الأستاذ العقاد فإنه يبدو من وصفه لطائفة النذيرين أن عاداتها ومعتقداتها لا تختلف فى شىء عن عادات الأبيونيين، وهذا كله إن دل على شىء فإنما يدل على أن الأبيونيين هم البقية الباقية من طائفتى الآسينيين والنصارى، الذين تمسكوا بعقيدتهم فى المسيح البشر الرسول، وكانوا—فى غالبيتهم—من الزهاد أو الفقراء. وتقول دائرة المعارف الأمريكية: إنه ربما يكونون هم أنفسهم قد استخدموا هذه الكلمة السامية (أبيونيم) لكى يرمزوا إلى زهدهم وتقشفهم، ولكنها استخدمت على سبيل السخرية من جانب خصومهم الذين قصدوا إلى تحقير لاهوتهم والازدراء بعقيدتهم.

وقد اتفقت الدائرة مع المؤرخين فى أن الأبيونيين كانوا يعتقدون أن يسوع ليس ابناً لله، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم بشأن مسألة ولادته من عذراء، فبعضهم أيدته والبعض الآخر عارضه ورفضه. واتفقوا جميعاً، على أن يسوع—وإن لم يكن إلهاً—إلا المسيح الموعود به، ويذهبون إلى أنه نال منزلته من الله نتيجة لتمسكه بصورة فريدة بالالتزام بحرفية ناموس موسى (التوراة) وهو ما جعل الله يصطفيه ويحتفى به بشكل شعبى وعام أثناء تعميده بمعرفة (يوحنا) فى نهر الأردن، ووقفوا موقف المعارضة للمارسيونية Marcionites وهو المذهب الذى ينكر كل علاقة باليهودية بما فى ذلك العهد القديم (التوراة).

(٥٧) المرجع السابق، صفحة ٦٠٩.

(٥٨) المرجع السابق، صفحة ٦١٦.

وكان للأبيونيين مجموعتهم الخاصة من الكتابات المقدسة، واستخدموا العهد القديم لا فى لغته العبرية الأصلية، ولا فى إحدى ترجمات اليونانية التى كانت متداولة بين المسيحيين، ولكنهم استخدموا الترجمة اليونانية التى وضعها (سيماشوس) Symmachus الذى تعتبره الكنيسة اليوسوية Eusedius أبيونياً. وكانوا ينظرون إلى رسائل بولس بازدراء باعتبارها كتابات وضعها مرتد محرف، ويبدو أنهم لم يكن لديهم أى من الأناجيل المعتمدة وذلك لشكهم فيها، ولكنهم تداولوا إنجيلهم الخاص بهم.

وتقول دائرة المعارف الأمريكية إنه من المحتمل أن يكون جوستين الشهيد Justin Martyr قد ذكر الأبيونيين بطريقة ما (ولو أنه لم يذكرهم بالاسم) حوالى سنة ١٦٠ ميلادية. وفيما بعد تناولهم بالبحث الكتاب المسيحيون الأوائل مثل (ترتوليان) Tertulian وايرنيوس Irenaeus وهيبوليتوس Hippolytus ويوسيبوس Eusedius وما ذكروه عنهم يمكن الافتراض بأنهم لم يكونوا متفقيين فى جميع الأمور، وفيما بعد اصطدموا بالمسيحية الأرثوذكسية، وكان ذلك ابتداء من القرن الرابع الميلادى، ثم مالبتوا أن اخفوا عن الأنظار، وعلى الرغم من أن اصطدامهم بالكنيسة كان بسبب إنكارهم لألوهية المسيح وإيمانهم به بشراً رسولاً (٥٩) وهو ما جعل الكنيسة تصدر قرارها بجرمانهم واعتبارهم محرفين ومهرطقين، فإن هناك سبباً آخر لموقف الكنيسة من هذه الطائفة لا يقل أهمية عما اعتبرته هرطقة وتحريفاً من هذه الطائفة، لقولها بأن المسيح بشر وليس إلهاً وابن الإله، وهذا السبب فى الحقيقة قديم وجديد فى آن واحد، وهو عنصرية الغرب الفجة، فقد أنف أن يعتنق عقيدة سامية، هى فى حقيقتها ليست غير مذهب إصلاحى يهودى، وليست ديناً جديداً، وكان الإغريق ومن بعدهم الرومان يكرهون اليهود ويحتقرونهم، لما كانوا يلاحظونه من تصرفاتهم الغريبة والمنفرة، مثل التمسك بالعزلة، وما عرف عنهم من جشع وطمع واستغلال للآخرين، ممن كانوا يسمونهم (الأميين) وعدم ولائهم للمجتمعات التى يعيشون بين ظهرانيها، وجبنهم الشديد، وعلى الرغم من كل هذه المثالب والعيوب التى أصبحت سمات مميزة لهذا الشعب، فإنهم كانوا يتصرفون بصلف وكبرياء لاشىء إلا لاعتقادهم الخاطيء بأنهم شعب الله المختار،

لكل ذلك لم يتصور الآريون (الأورييون) أن يعتنقوا ديناً يهودياً، أو حتى منبثقاً عن هذا الدين السامى خاصة أن الساميين كانوا قد وقعوا منذ زمن بعيد فى برائن الاحتلال الآرى، واعتبروا مواطنين من الدرجة الثانية حيناً، وعبيداً حيناً آخر.

وما لاشك فيه أن بولس عندما ذهب إلى أوروبا يدعو إلى المسيحية، ذهب وهو يحمل فى داخله إحساساً بالدونية أمام الفكر الأوربى الذى كان قد درسه وتأثر به، ولذلك فإنه آثر أن يعرض بضاعة تلائم هذا الفكر، لأن يعرض المبادئ التى جاء بها عيسى عليه السلام، والتى غلب على ظنه أن الآريين لن يقبلوها.

ويمكن أن نلاحظ بسهولة النغمة العنصرية القوية فيما كتبه مؤرخ مثل (بونسين) Bunsen (٦٠)، عن المسيحية، فهو حين يتكلم عنها يبدو كما لو كان يسجل صراعاً بين العنصر السامى صاحب اليهودية والنصرانية، والعنصر الآرى (اليونان والرومان) أصحاب المسيحية، وكيف انتهى هذا الصراع بانتصار الآريين الذين نجحوا فى فصل المسيحية عن اليهودية، بإقامة عقيدة التثليث والتأكيد عليها، بحيث أصبح الخلاف بينها وبين عقيدة التوحيد اليهودية جذرياً ولا رجعة فيه، ثم كيف عملوا على الخلاص من اليهود الذين اعتنقوا النصرانية، حتى لا يؤدي وجودهم فى داخل المسيحية، مع إيمانهم بالإله الواحد، وإنكارهم للتالوث، إلى إضعاف المسيحية ثم القضاء عليها.

وقد سبق أن بينا كيف أن كثيراً من الباحثين لاحظوا التماثل الواضح بين عقيدة الآسينيين الذين كانوا يقيمون فى خربة قران، وبين ماورد فى الأناجيل، وبخاصة إنجيل يوحنا مما جعلهم يرجحون أن يكون أصحاب تلك الأناجيل قد نقلوا كثيراً مما فيها من مصادر الآسينيين بعد إضافة فكرة التثليث، التى أقحمها بولس على دعوة المسيح عليه السلام، وهذا فى ظننا صحيح لا ينال منه القول بأنهم، أى — الآسينيين — قد قامت بينهم وبين دعوة المسيح عليه السلام بعض الاختلافات، فهذه الاختلافات بسيطة للغاية، وليست مما يصطدم بأسس العقيدة، بل إن كثيراً منها مصطنع ولا أصل له، من ذلك القول بأنه فى حين كانوا أمة معتزلة

(60) C.C Baron Bunsen, God in History, or the Progress of Man's Faith in The moral order of the World Vol. 1860, p. 42.

عن الشعب يتنجسون من أكله، ومن مجالسة العشارين والحظاة-فإن المسيح كان على العكس من ذلك، يأكل ويشرب مع العشارين والحظاة، وبينما كانوا يعتبرون الخاطيء نجساً كالمشرك، فإن يسوع كان يقبل توبة الابن الشاطر الفاجر ويسمح للزانية العاهرة-حين تابت وأتت إليه -أن تقبل قدميه وتمسحها بشعر رأسها، ويرى أن العشار التائب أفضل من الفريسي أو القمرائي المتجبر، فإن كل هذه الاختلافات وغيرها إنما نشأت عن أن المسيح كان نبياً ورسولاً يوحى إليه من السماء، أو أكثر من هذا، وهو ما قاله بولس، كان إلهاً وابن إله، فله بهذه الصفة أن يغير ويبدل في الناموس، على الرغم من أنه هو نفسه نفى ذلك بشدة وقال إنه ما جاء ليبدل الناموس، بل جاء ليهدى خراف بنى إسرائيل الضالة. وما فعله الآسنييون لم يكن إلا التزاماً منهم بهذا الناموس.

أما ما قيل من أنهم اختلفوا معه فيما دعا إليه، حيث إنه دعا إلى التثليث في التوحيد الكتابي في حين دعواهم إلى التوحيد التوراتي وأنهم اعتبروا المسيح بشراً رسولاً، في حين أعلن المسيح في محاكمته أمام السهندرين، مجلس القضاء الأعلى: «من الآن يكون ابن البشر جالساً عن يمين قدرة الله! فقالوا جميعاً: أفأنت إذن ابن الله؟ فقال لهم: أنتم قلتم! أنا هو» فيسوع هو «ابن داود» و«ربه» معاً ويسوع يدعو إلى الله بصفة كونه «أبى» و«أبانا الذى فى السموات» فى حين أنه فى مخطوطات قران لم يجهد العلماء إلا مرة واحدة أنهم يصفون الله أباً» (٦١) فإن كل هذا كلام لم يقم الدليل عليه من أقوال المسيح ذاته، بل إن ما استدل به أنصار هذا الادعاء إنما يثبت عكس ما ادعوه فقول المسيح عن الله تعالى «أبى» ليس معناه أنه يقصد أنه أبوه فعلاً، وإلا فإن ما قاله عن «أبانا الذى فى السموات» يفهم منه أن البشر جميعاً هم أيضاً أبناء الله، ولكن بالميلاد، كما زعموا بالنسبة لعيسى، ولكن الواضح من كلامه أنه كان يقصد أن البشر جميعهم هم عيال الله وليسوا أبناءه بالميلاد.

ولعلنا من هذا البحث المستفيض فى طوائف اليهود وعلاقتها بالمسيح وموقفها من دعوته-نكون قد بددنا جانباً من الغموض الذى أحاط بنشأة الفتية الذين أوا

(٦١) يوسف الحداد، المرجع السابق، صفحة ٦١٧.

إلى الكهف ، والذين لم يكونوا من سكان افسوس ، كما تقول الأسطورة المسيحية ، وإنما كانوا من سكان «بيرا» أو البطراء ، أو فى فرض آخر، من سكان (فيلادلفيا) التى أصبحت تسمى عمان حيث يتوسط الكهف هاتين المدينتين حتى لقد سمي العرب (البطراء) مدينة أهل الكهف .

وكان هؤلاء الفتية من شيعة (الأبيونيين) التى تفرعت عن طائفة الآسينيين فى أرجح الأقوال ، وقد تبين لنا مما ذكره المؤرخون عن هذه الطائفة ، وما أسفرت عنه كشوف البحر الميت—أن مبادئها وقيمها وعاداتها وعقائدها كانت مماثلة تماماً لما كان عليه النبى يحيى (يوحنا المعمدان) كما يرد اسمه فى الكتب المسيحية ، ولما جاء به المسيح عليه السلام من الدعوة إلى الحب ونبذ الكراهية والميل إلى السلم ، والتشف والزهدي ، والبعد عن الرياء والنفاق .

كذلك فإنهم كانوا يؤمنون بالبعث والحساب والثواب والعقاب ، ويترقبون مجىء المسيح ، النبى الرسول ، ويطعمون فى الأماكن النائية بعيداً عن صخب المدن ، وإنهم عندما أظهر المسيح دعوته انضموا إليه واعترفوا به نبياً ورسولاً ، فأغضبوا قومهم اليهود الذين كانوا يعبدون «يهوه» وهو إلههم وحدهم ، دون غيرهم من الأمم ، ثم لم يلبثوا أن أغضبوا المسيحيين الجدد الذين خلطوا المسيحية الحقبة بالوثنية والشرك ، وأقحموا عليها عقيدة التثليث ، ونادوا بألوهية المسيح .

وهؤلاء وأولئك هم قوم الفتية ، ولكنهم منقسمون على أنفسهم إلى يهود متمسكين بعقيدتهم التى أفسدها الأجبارة ، ومسيحيين من أتباع بولس اليهودى الذى يؤله المسيح ويدعوه ابن الله ، وقد حدث هذا عندما قامت الثورة اليهودية عام ٦٦ — ٧٠ ميلادية عندما قضى الرومان على مستوطنة الآسينيين وعلى أديرتهم فى خربة قران قبل القضاء على أورشليم عام ٧٠ ميلادية ، فقام الآسينيون قبل هروبهم من المنطقة بإخفاء مخطوطاتهم فى الكهوف المنتشرة فى المنطقة ، ومن نجا منهم من مذبح الرومان انضم بعضهم إلى ما يسمى «النصرانية اليهودية» وهؤلاء هم الذين عرفوا فى التاريخ باسم الأبيونيين أى الفقراء ، وهم الذين قال الإنجيل فيهم : «طوبى للأبيونيين» وهى بالآرامية ، ومعناها بالعربية المساكين ، فى حين انضم البعض الآخر إلى تلاميذ (يوحنا المعمدان) وصاروا يسمون أنفسهم

(المدائنين) (٦٢).

وقد عاش الأبيونيون فى البرية التى توجد فى الضفة الشرقية لنهر الأردن، يعبدون الله الواحد الأحد، ويؤمنون بعىسى بشراً رسولاً، ولكنهم لم يسلموا من الاضطهاد الذى أصبح مصدره مزدوجاً، فقد اضطهدهم اليهود باعتبارهم مرتدين عن اليهودية، واضطهدهم المسيحيون باعتبارهم محرفين؛ لأنهم رفضوا الاعتراف بيسوع ابناً لله ولم يعترفوا بالثالوث.

ولعل هذا يفسر لنا قول الفتية: ﴿رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قَلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ (٦٣)

ثم قولهم: ﴿هُؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (٦٤)

فهم فى القول الأول يقصدون بالإله الذى لن يدعوا إليه، إله اليهود (يهوه) ويقصدون فى القول الثانى آلهة المسيحيين (الأب والابن والروح القدس) ثم العذراء التى اعتبروها إلهة هى الأخرى. وهم من كان فتية أفسوس يؤمنون بهم فى ظل عقيدة التثليث، والراجح لدينا أن طائفة الأبيونيين أو الفقراء لم تنقرض فى القرن الخامس كما ذهب إلى ذلك ديورانت، وإنما استمرت فى الوجود حتى ظهور الإسلام، والدليل على ذلك أن طريقة هذه الطائفة فى الحياة فى الصحارى بعيداً عن العمران، واتخاذ الصوامع للعيش فيها ظلت متبعة من جانب عدد من الرهبان الزهاد الذين كانت صوامعهم تمتد من شرق الأردن إلى عمق الصحراء فى الجزيرة العربية، على طريق التجارة مع الشام، ومع مصر عن طريق أيلة.

كذلك فإن هؤلاء الرهبان الزاهدين كانوا متمسكين كعادة أسلافهم بتوراة موسى، ويعلمون ما فيها من نبوءات، وكذلك بإنجيل المسيح الذى لم تنل منه أيدى بولس وشيعته، ومن شيعة الأبيونيين الراهب المعروف فى التاريخ الإسلامى باسم

(٦٢) يوسف الحداد، المرجع السابق، صفحة ٦١٠.

(٦٣) سورة الكهف، الآية ١٤.

(٦٤) سورة الكهف، الآية ١٥.

بحيرا Bahira الذي تردد ذكره في كتب السيرة أنه التقى بالنبي ﷺ، وتنبأ بأنه النبي المنتظر لما رآه من علامات وبشارات تطابق ما جاء في التوراة والإنجيل الصحيحين، وقد كانت لدى الأبيونيين نسخ منها، كما كان لدى الآسينيين. وكان هذا الراهب يقيم على مقربة من بلدة بصرى بإقليم حوران.

وقد أراد المستشرقون وعلماء التاريخ الغربيون أن يسددوا طنعة إلى الإسلام باتهامهم للرسول ﷺ أنه تلقى عقيدته وشرائعه وأجزاء من القرآن من هذا الراهب، فكان أن رد الله كيدهم إلى نحورهم؛ إذ أنهم بذلك يعترفون أن هذا الراهب كان يؤمن بعقيدة التوحيد، وأن اليهود والنصارى قد غيروا وبدلوا في كتبهم، فوصف اليهود الله سبحانه وتعالى بأوصاف لا تليق به، وصوره في صورة سيئة مهينة، فقد شخصوه ونسبوا إليه عواطف الإنسان وأعماله، فذكروا أنه كان يتمشى في الجنة، وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب ويحشى مركبات الخيال، بل وقالوا عنه ما ذكره القرآن: «يد الله مغلولة» في حين جعله المسيحيون أباً وزوجاً وأشركوا معه ابناً هو المسيح الذي أضفوا عليه صفة الألوهية، وجعلوه ابناً لله حيناً، والله ذاته حيناً آخر.

ولم يكن هناك، بعد تفشى المسيحية التي وضع بولس أسسها، وبقاء اليهودية في بعض أجزاء من فلسطين والشام، غير طائفة الأبيونيين لتقول هذا الكلام. ولذلك اتهم هؤلاء المستشرقون وغيرهم من المؤرخين الراهب بحيرا بالإلحاد، بل وشككوا في اسمه فقالوا إنه ليس بحيرا وإنما اسمه سرجيوس أو جرجيس أو نسطور. وهذا—إن دل على شيء—فإنما يدل على أنه كان هناك أكثر من شخص يعتقد عقيدة هذه الطائفة، بل إن هناك دليلاً على أن هذه الطائفة استمرت في الدعوة إلى عقيدتها، وأنها نجحت في إقناع بعض العرب باعتمادها ومن هؤلاء ورقة ابن نوفل ابن عم السيدة خديجة زوج الرسول ﷺ وكان قد تنصّر في الجاهلية، ولكن عقيدته كانت تقوم على التوحيد وإنكار ألوهية المسيح، أو بنوته لله سبحانه وتعالى، وهي نفس عقيدة الأبيونيين، كما أن من المرجح أن تكون هذه الطائفة قد مدت نشاطها إلى عقر دار الإمبراطورية الرومانية، حيث ظهرت بعض الشيع، ومنها شيعة الشيودوتية التي لم تكن ترى في المسيح أكثر من إنسان، وشيعة المتبينة

التي تقول إن المسيح ابن الله بالتبني لا بالطبيعة (٦٥)، أى أنه إنسان كغيره ولكن الله اصطفاه .

أما الانقراض الحقيقى لهذه الطائفة فقد حدث بعد الإسلام الذى وجد فيه أفرادها القلائل الذين أدركوه ما يتفق وعقيدتهم، ويعد انتصاراً لها، حيث إنه بظهوره أعاد الأوضاع إلى ما كانت عليه يوم بدأ المسيح ينشر دعوته بين خراف بنى إسرائيل الضالة — بل وإلى ما قبل ذلك يوم كانت التوراة نقيّة سليمة صحيحة، قبل أن يحرفها أحبار اليهود .

وهكذا يتضح لنا أن لجوء الفتية إلى الكهف لاعتناقهم له بثورة اليهود على الرومان، ولا باضطهاد الرومان للمسيحيين، ومحاولتهم إجبارهم على ترك المسيحية والعودة إلى عبادة الأوثان، وإنما كان نتيجة لعملية اضطهاد مزدوج صادر من جماعتين إحداهما تعبد إلهاً غير إله الفتية، والأخرى تعبد آلهة متعددة من بينها الله، مما يدل على أن هاتين الجماعتين، على الرغم من اختلافهما قد تعاونتا معاً فى الاعتداء على الفتية وجماعتهم، وكل جماعة منهما تهدف إلى إعادتهم إلى دينها: اليهود يريدون أن يعيدوهم إلى عبادة إلههم (يهوه) والمسيحيون يريدون أن يفرضوا عليهم عبادة الثالوث، وقد حدث هذا عندما اضطلع المدعو «ماركوس» أو مرقس بوظيفة أسقف «أورشليم» وسعى إلى التصالح مع الرومان ومع الكنيسة الكاثوليكية على حساب طائفة الآسينيين وشيعتهم الأبيونيين أو الفقراء وهى شيعة الفتية .